عصفور الظل

مجموعة قصصية

خالد محزري

اسم الكتاب: عصفور الظل

اسم الكاتب: خالد محزري

رقم الإيداع: 7479 / 2019

الترقيم الدولي: 978-977-835-100-2

الطبعة الأولى: 2019

إخراج داخلي: هيام فهيم

صادر عن: مؤسسة زَحمَة كُـتَّاب للثقافة والنشر

15 ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

www.za7ma-kotab.com

دار زحمة كتاب للنشر

za7ma_kotab_publishing

za7ma-kotab@hotmail.com

01205100596

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لمؤسسة زَحمَة كُـتَّاب للثقافة والنشر

الإهداء ..

أخشى أن أهدي أحدهم فشلي!

فالكتب تباع وتشترى، أما الكلمات فتبقى وتبقى

ولذلك تهدى، وسأهدي كلماتي المتواضعة

إلى من دفعني إلى الأمام عالي الصرح شامخ المهاد

إلى أستاذي الفاضل في المرحلة المتوسطة

"يحيى بن موسى حكمي"

فكلما بهتت ألوان الحياة في نظري

تظل كلماته نورا في العتمة.

خالد محزري

مقدمة ..

حملت المجموعة القصصية عنوان (عصفور الظل)، مجموعة من القصص تتسم ببعض أعمالنا الأدبية باحتوائها على ثنائيات إنسانية كالحب والكره والعدل والظلم واللقاء والفراق.

وستظل الذاكرة تبتسم أمام كل من نصادفهم، وستبقى في حياتنا حكايات تتخذ من المكان والزمان ذكرى تعلق نتمرد عليها أو نتجاهلها لكنها تبقى الضوء الذي يتسلل إلينا من كوة الباب الصغير.

الذاكرة غائمة مليئة بالحب والسلام لكنها تغرق في تفاصيل أصحابها الدقيقة وستغوص عميقا لتنبض ذاكرة الماضي بين الفينة والأخرى فتبعث بفيئها وهم المقابر وذكرى حية تمنح الأمل .

خالد محزري

"الكتابة مكافأة عذبة لكن مكافأة على ماذا؟".

فرانز كافكا

أكتب حتى أقبض على مشاعري، وحتى أحلق عبر شجوني، وأخلق حروفا تتشح أملا، وتضمد ألما، وتخترق أعماق الأشياء.

أكتب لأن الكتابة تغويني لسرد تفاصيل الحقيقة، والهروب من الأوراق المكشوفة .

أكتب لأن الكتابة فراشة تتناثر كالمطر، وتبلل حكايتي القديمة.

أكتب لأن الحياة لا تحتمل الثرثرة على رصيف الذاكرة.

خالد محزري

ليلاف ..

دخل مراد قريته ليلا عائدا من المدينة، والهدوء يلف المكان، والقرية تتشبث بجسده النحيل، وذكرياته الخالدة عالقة في كل الطرقات، والبيوت القديمة تبدو للزائرين أو العائدين على الأطلال ساكنة لا حراك فيها، ومن يمعن النظر فيها يخيل له بأنها باتت قطعة واحدة تؤنس بعضها البعض.

وفي صبيحة اليوم التالي ارتفع صياح الديك في كل مكان، فاستيقظ مراد ثم جلس مع نفسه، وغرق في ماضي الريف الجميل، وانتابه شعور عظيم، ولقد تمادى به الشعور، وسرح أمام نوافذه الصغيرة التي كان يرصد معها المارة.

فقد ولد مراد في هذا البيت الصغير، وكان هذا البيت المهجور مليئا بالحياة، والقرية مليئة بالذاهبين والعائدين.

ولم تكن تخلو ساحة منزلهم من الضيوف والأقارب مع كل عصرية حيث تدار بينهم الأحاديث في مواضيع متنوعة، وباب منزلهم الصغير كان يقرع كثيرًا.

عادت الذاكرة بمراد إلى الوراء حيث تذكر كم كانت أصغر المناسبات يشارك فيها الصغير والكبير، ويفتقدون من يغيب عنهم، ويتزاورون كل صباح ويشربون الحليب والقهوة، ويتنفسون رائحة الخبز المحترق من التنانير التي يرتفع دخانها عاليا فيشاهده من في أقصى القرية، ومن ثم يذهبون إلى مزارعهم الخضراء التي تفوح برائحة العشب، وجميل هو صوت خرير الماء بعد هطول الأمطار حيث تسقى المزارع، ومع زقزقة العصافير، وتحت ظلال الأشجار يتناولون الإفطار بعيدا عن الترف والبذخ، وتتعدد الأعمال بين من يرعى قطيعه من المواشي، ومن يقطف ثمره، وهناك من يسقي أرضه.

استسلم مراد لهذا التخدير الصباحي، وظل يراقب العصافير التي تبني أعشاشها، وهي تلحن لحنا مفعما بجمال وعذوبة وهدوء الريف، ثم نهض عقب ذلك، وأخذ يتجول ويسير بين البساتين، والسماء صافية، والهواء عليل يطيب لكل من يريد الإقامة بمناظر هذه القرية التي تشرح الصدور وتشدو طربا بصوت الطيور فوق قمم الأشجار.

طرق المساء أبوابه، وتلبدت السماء بالغيوم، وصوت الرعد ينادي السحب، وحينها أدرك مراد بأن فصل الشتاء قد دخل فالمطر ينهمر

بشدة، ورغم برودة الشتاء الذي ينعم علينا بشدة البرد وفي ذلك حكمة لنعرف قيمة الدفء.

في أقصى القرية تسكن ليلاف، وفي وقت متأخر من الليل، السكون يخيم على سكان القرية، وكانت ليلاف تجوب الطرقات الريفية دون مظلة تخفف من شدة الأمطار، وتسير بعشوائية، بحثًا عن منزل مراد الذي يقوم بدور طبيب القرية، ويقدم العلاجات لأهل القرية.

وصلت ليلاف إلى وجهتها بعد قرابة الساعة سيرًا على الأقدام، ويبدو عليها أثر الإرهاق، والتعب الذي يكاد يغطي على جمالها، ومفاتنها الحسناء، وبيدها الناعمة قرعت الباب ثم سقطت مغشية.

سمع مراد الذي يبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة صوت دقات ليسير نحو الباب .

سأل مراد:

- من في الخارج؟ من الذي يطرق الباب؟

لم يسمع سوى زخات المطر على كوخه، وارتبك قليلا وشعر بالخوف، فلربما محتاج، ولربما عابر سبيل يبحث عن قوت في هذا الليل.

وأخيرًا، فتح مراد الباب وإذا بفتاة مغشية عليها.

قدم لها الإسعافات الأولية.

فاقت من غيبوبتها وهي في وسط منزله الصغير.

سألها مراد: هل أنت بخير يا عزيزتي؟

- لا أنا بخير، ولكن أمي مريضة في المنزل، هل تقدم لها العلاج؟

مراد: بكل سرور نعم.

أخذ مراد حقيبته الطبية التي أحضرها من المدينة، وهرع مسرعًا على الأقدام برفقة ليلاف التي ترتجف من البرد كما هو حال الأرض التي ترتجف بردًا، ومن ثم لفّ مراد حول عنقها وشاحه الثقيل حتى لا يلفح الهواء البارد تلك البراءة.

وليست الأرض وحدها التي ترتجف بردًا، حتى القلوب ترتجف بردًا والنبض يبحث عن الدفء.

وفي أثناء السير كشفت ليلاف عن هويتها واسمها وسيرتها الذاتية وأحلامها الوردية التي لا تتوافق مع إمكانياتها المادية فهي تحلم بالانتقال إلى المدينة، وإكمال دراستها الجامعية في الطب أو التمريض فهي في السنة الأخيرة في المرحلة الثانوية حيث تبلغ من العمر سبعة

عشر عامًا، وتعمل في أوقات فراغها في إحدى مزارع القرية برفقة والدتها.

وكم يأمل مراد الذي بدأت نظرات الإعجاب تجذب عينيه، ويأمل بصمت أن تطيل ليلاف الخطوات نحو المنزل، وأن يسير الليل ببطء.

لم يكن الشعور بالشتاء أكثر من الوقوع في الإعجاب، فمراد أمام تلك الحسناء التي يسير تارة عن يمنيها، وأخرى عن يسارها يتمتم بالحروف.

وصلا إلى المنزل وقدم مراد واجب الإسعاف لوالدة ليلاف التي تبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا، والنحلة لا تنجب سوى العسل.

واطمأن مراد على نبضها ومنحها العلاج اللازم، وأمرها بالبقاء في المنزل طيلة أيام الأسبوع المقبل خشية الانتكاسة، فموجات البرد ستكون مضاعفة في حال قررت أم ليلاف العودة للعمل.

أصرت ليلاف ألّا يغادر مرادٌ إلا على شعاع الشمس بعد أن استأذنت والدتها، وحتى يبدأ الجو بالتحسن تدريجيا.

ومن ثم أمرت أم ليلاف ابنتها أن تعد للضيف كوبا من الحليب الساخن بحثا عن الدفء.

بينما يرى مراد المعجب بأن الدفء في عيني ليلاف الزرقاوين، وبدأت أفكار مراد تعرض على مسرح المستقبل وليست عقارب الساعة التي يسمع دقاتها بل يسمع مراد دقات قلبه تتسارع.

سرح مراد مع نفسه قليلا وفي حديث خيالي.

يسأل ليلاف عن فصل الشتاء وماذا يمثل لها

ليلاف تجيب:

-يؤلمني برد الشتاء ويؤلمني أكثر حين أبحث عن حضن يسكن ألمه، وقلبٍ صادقٍ يروض موجاته المتقلبة فعلى نافذتي تتناثر قطرات المطر كل ليلة، وكأنها تهمس بصوت خافت يا ليلاف تفاءلي سيأتي نصيبك من الحظ ذات يوم!

يرد مراد:

-الحياة مستمرة يا ليلاف، وما زال الأمل موجودًا وستطرق تلك القطرات نافذتك بلطف ذات يوم، ولن تستأذنك في الدخول إلى قلبك، وستنسين همومك، وسينمو قلبك بحب زاهر.

لا تشعري بالبؤس فالأوقات الحزينة والليالي القاسية ستنتهي وتتلاشى حين تكون أحلامك واقعا فتحتويك رائحة الحنان الرائعة والتي

ستجعل من نافذة غرفتك بابا من الأمل، فالقلوب الصادقة وطن وملاذ دافئ للحب والسلام.

استبدلي الألم بالأمل، ازرعي الورود حول نافذتك، وسيتكفل المطر ببث الحياة فيها.

سطعت الشمس، ولم ينته عزف مراد الخيالي، وهو يتأمل تلك العينين البراقتين، ويرسم عليها ملاحم عشق قادم. أم هي ثورة إعجاب قد تنطفئ سريعا، وواصل مراد حديثه الصامت ويروي في مخيلته فصلا للدفء.

يشعر مراد برعشة البرد في جسده بينما ليلاف ذهبت إلى أمها لتطمئن عليها قليلا.

عادت ليلاف وأشعلت الموقد بحثا عن الدفء.

بينما مراد ما زال يعيش جوا خياليا وسط جو هادئ، وازرقت أطرافه وبدأ قلبه يخفق، وكآبة الوحدة التي يعيشها تمحى وتنبئ بربيع زاهر.

الشتاء ما زال مختبئًا بالنسبة إلى ليلاف فهي تفكر في أمها.

يسرق الوقت لحظات مراد الخيالية والجميلة واليوم عطلة نهاية الأسبوع مما يعني مزيدًا من اللقاءات والصباحات الرومانسية.

تقف ليلاف أمام النافذة، وما زالت قطرات المطر تنهمر، وتراقب الطقس.

مراد يراقب بصمت، ومن ثم يقوم من على الكرسي ينظر إلى جمال المطر الذي تحتضنه الأرض.

سأل مراد ليلاف عن الأم وعن ساعات عملها الطويلة ولا بد لها من الراحة والاهتمام بها في الفترة القادمة.

ليلاف ترد:

-إنها أمي التي حملتني تسعة أشهر وليس لي شيء غيرها سأعتني بها ولن أدعها تذهب إلى العمل مرهقة.

عاد مراد ليطلب من ليلاف أن تسمح له بالذهاب لكنها تكرر الرفض بسبب الطقس.

تجرد مراد من الموقف ثم سبر أغوار حياة ليلاف الخاصة، وحاصرها بهيئة محقق بوليسي

- هل عشت قصة غرامية؟

فردت ليلاف:

-ليس على بالي مثل تلك الأمور فأنا أدرس وأعمل ولا أفكر في شيء سوى راحة أمي ومساعدتها وتحقيق حلمها وحلم أبي الراحل.

مراد:

-أصدقائي في الجامعة يروون لي قصصًا غرامية ما بين قصة ناجحة، وأخرى فاشلة جلبت المرض لأصحابها حتى بات الطبيب النفسي الملجأ الأول لفتيات وشباب صغار في السن.

ثم تحدق ليلاف في عيني مراد فتقول:

- لا يهمني هذا الحديث الآن يا دكتور

مراد يحاول جر ليلاف إلى الحديث العاطفي فيقول:

- قرأت في كتاب بأن الأنثى تأخذ وقتًا طويلا لنسيان علاقة عاطفية، وقد تمتد إلى فترات طويلة فلربما لا ينفطر قلبها مرة أخرى، بينما الرجال يواصلون حياتهم بشكل طبيعي.

والنسيان المتدرج يفتح لهم آفاقا جديدة، وسرعان ما ينغمسون في علاقة جديدة أو البحث عن شريك مناسب.

ترد ليلاف:

-يا دكتور، كلامك كبير وأنا لم أفهم شيئا عماذا تتحدث وماذا تقصد؟

يتحدث مراد بحديث يفوق عمر ليلاف وسط تركيز وإصغاء من ليلاف لفك شفراته دون جدوى.

تطلق ليلاف على مراد لقب الفيلسوف.

مراد يبتسم:

- كلا لست فيلسوفا ، أنا طالب طب فقط.

فيعود مراد للحديث غير المفهوم إلى ليلاف فيقول لها:

- الألم الجسدي، والغدر، والخيانة، والتخلي عن شريك لسبب ما يتركون جراحا غائرة ونزفًا مستمرا تحتاج حواء إلى سلسلة من الجلسات، وإعادة الحسابات فهي انتقائية في اختيار شريك جديد ، وقد تعيش حواء في تدمير ذاتي ربما يقضي على أحلامها كافة.

ليلاف فتاة فطنة ولبقة ما زالت منصتة.

ما زال مراد يعيش عالما آخر ويتحدث:

- الكثير لا يحب مواجهة الحقيقة، والعلاقة العاطفية مثل الورد كلما زاد الماء سيحيا وتعيش مدة أطول، وحين يجد الجفاء سيذبل حتى تموت، والتعافي من العلاقات العاطفية يحتاج نوعًا من التركيز، والعمل

العقلي وبعد فراغ القلوب، التفاهم هو أحد الركائز الأساسية التي تقوم عليها العلاقات فالبناء ليس كالهدم في الحب.

كان ذلك مشهدا صامتا يداعب خيال مراد حينما سجل إعجابه ببنت الريف ليلاف من اللقاء الأول والذي استمر لساعات قليلة تمكن من خلالها من مساعدتها في أزمة أمها الصحية المفاجئة.

تشير الساعة إلى السابعة صباحًا وهو موعد عمل ليلاف في الإجازة للذهاب إلى المزرعة بينما الإرهاق يسيطر عليها وقد بدأ الجو في التحسن قليلا.

خرج مراد وليلاف سويًا، مراد الذي ينوي الذهاب إلى كوخه الصغير، والذي يعيش فيه وحيدًا، فيما تريد ليلاف التي تتحامل على التعب والإرهاق الذهاب إلى المزرعة للاستئذان لأمها فالأمر يبدو صعبًا في ظل مرض الأم مما يتطلب منها تعويض ساعات عمل لاحقا لتفادي الخصم.

كان مراد قد ترك عنوانه في منزل ليلاف على الطاولة.

صندوق سارة ..

تشير الساعة إلى السادسة والنصف صباحا، يتحرك أحمد مسرعا هنا وهناك، يجمع أغراضه الصغيرة، أوراقه ودفاتره الجميلة، أقلامه البلاستيكية رائعة الألوان، سويعات قليلة بقيت على انطلاق رحلته إلى المدينة، جميع أهله مشغولون بفراقه بينما هو مُهوَّس بحقيبته وأغراضه.

ألقى أحمد ظهره على الأريكة وأخذ يفكر في الأيام الماضية، كانت متعبة ومليئة بالأنشطة ما بين الدراسة والمزرعة والرعي.

ثم حزم أحمد الحقائب، وأحكم إغلاقها جيدا فهو يسافر للمرة الأولى بحثا عن العمل في المدينة. لم يطل أحمد الجلوس دقائق حتى تذكر أشياء منسية يجب أن يأخذها، فأسرع يبحث عنها هنا وهناك، وفتح ما أغلق، وأغلق ما فتح من الحقائب، فأخذ يلوم تلك اللحظات.

فقال: تبا للحظات الأخيرة قبل السفر، فهي ضاغطة للأعصاب ومزعجة، وعلى عتبة الباب دموع أمه تنهمر بشدة وإخوانه الصغار يبكون على فراقه، منهم من يشد ثوبه ومنهم من يتابع هذا المشهد بأسى وحزن.

وكان أقرب مطار على مقربة100 كيلو متر وعربة والده القديمة المتهالكة لا يسير بها على الطرقات الكبيرة فهو لا يملك رخصة سير تؤهله للقيادة فكان لا بد من الاستعانة بجارهم "أبي سعيد" الذي لبى النداء ولكن سيارته هي الأخرى بحالة لا يرثى لها، ولا بد من دفعها حتى تعمل، فأحمد ووالده وعابر سبيل تكفلوا بالمهمة وبعد عدة محاولات أنعشت السيارة وعادت لها الحياة.

فركب أحمد السيارة وأخذ يتأمل، وهو يلقي النظرة الأخيرة على القرية، سيفقد أهله ورفاقه وجيرانه، وربما لن يعود سريعا فلا بد من العمل فترات طويلة قد تصل إلى عامين أو ثلاثة أعوام وربما أكثر حتى يعود بحوزته حزم من الأموال ليتزوج!

وكان أحمد قد أنهى دراسته للمرحلة الثانوية بتقدير ممتاز في قريته الصغيرة.

لم يكن يعرف كثيرا عن عمه في المدينة، فهو لديه عم متزوج وله بنات في المدينة فمنذ عقدين ترك عمه القرية بحثا عن حياة الحضر فعمه يدير شركة كبيرة وتندر زيارته للقرية ولأخيه -أبي أحمد- الذي يعمل في مزرعته نهارا وليلا حتى يغشاه النوم في منزله الكائن في وسط مزرعته.

وصل أحمد إلى المطار، أتم جميع الإجراءات المتعلقة بالسفر، سمع النداء الأول وكان في مقدمة المسافرين، دخل الطائرة، ظل صامتا لفترة طويلة لا يتحدث مع من حوله متعجبا ومنبهرا بهذه الطائرة وحركتها الرشيقة، فلم تسمح له ظروفه بمشاهدتها من قبل على أرض الواقع سوى في التلفاز القديم وبعض الكتب الدراسية.

وصل أحمد إلى المدينة التي يسكنها عمه بعد رحلة امتدت زهاء ساعتين، ولم يكن عمه في استقباله، فسمع أحمد شخصا ينادي أحمد إبراهيم.

فالتفت أحمد له ثم سأله: من أنت؟ وماذا تريد؟

فقال له: أنا سواق العائلة لمنزل عمك محمد.

فقال أحمد: وأين عمي؟

السائق عبد الغفور: إنه في العمل.

وبعد عدة أسئلة غادر أحمد من المطار مع السائق للسير بتلك السيارة الأمريكية الفارهة نحو المنزل.

وتظهر علامة الدهشة والتعجب لدى أحمد من كثرة المارة وتعدد الموضات، والأزياء المتنوعة، والأضواء التي لا تنطفئ، فالساعة تشير إلى الواحدة ظهرا، والحياة أشبه بالسابعة صباحا في القرية.

أحمد (التقليدي)، والمحافظة على كثير من العادات هي ديدنه، والتقاليد الريفية، بات أمام حياة جديدة، ومختلفة هي صراع بين القرية والمدينة.

وسره ما شاهده من قناديل الإنارة في الطرقات، والمطاعم التي ما زالت مكتظة بالزبائن خارج المطار، وانبهر بالألوان الكثيرة الصاخبة التي طليت بها المنازل خارج المطار حيث الأحمر، والبنفسجي، والأخضر...

كانت الحدائق والشوارع في المدينة ذات حياة وجمال، والأرصفة مزودة بأماكن للجلوس.

وصل أحمد إلى المنزل في تمام الساعة الثانية مساء، وفي الوقت الذي ينشغل عم أحمد بالعمل كانت زوجته تعتكف على تربية البنات فهي قاسية الطباع لا تبتسم كثيرا فهي الآمرة الناهية في ذلك القصر ولا يجرؤ أحد على كسر كلمتها أو مناقشتها.

سارة 23 عاما، البنت الكبرى من بنات عم أحمد وهي فتاة جميلة وحاجباها يلتقيان فوق عينيها الوسيعتين وفمها الصغير وشعرها الطويل متناسقان تماما مع رقبتها وكتفيها وقد أتمت بكالوريوس الدراسات الاجتماعية، ومن ثم هند وليلى، فحين وصل أحمد كانت سارة هي في استقباله فرحبت بابن عمها الذي بادلها التحية على خجل.

وكانت الأم تغط في سبات عميق وقد تغلب عليها عناء الإرهاق قليلا بعد ليلة قضتها في السهر مع جاراتها في حديقة منزلها.

وفي تمام الساعة الثالثة مساء موعد غداء العائلة حضر كبير العائلة عم أحمد الذي يبلغ من العمر55 عاما لكن كفاحه في الحياة وعزمه على تأسيس شركة يظهره بسن أكبر من ذلك حيث إنه قصير القامة، أصلع، هادئ وحازم وكثيف اللحية ذات البياض لكنها مصبوغة بالحناء، تميل بشرته إلى البياض.

حضن أحمد عمه وقبل رأسه وجلس بجانبه ليحدق عمه قائلا:

-ما شاء الله تبارك الله لقد كبرت يا أحمد فآخر عهد لي بك وأنت طفل صغير.

وكان أحمد طويل القامة وجهه جميل وعيناه السوداوان تشعان بالصفاء والحسن وأنفه مستقيمة، فطن وذكي وطموح وحريص على الإنصات، يحترم من هو أكبر منه سنا.

طرح عم أحمد مجموعة من الأسئلة على أحمد:

-ماذا تريد الآن فهل تفضل أن تعمل بالسلك العسكري أو تعمل في الشركة لدي أو تطمح لمواصلة دراستك؟

سكت أحمد قليلا ثم نطق:

-أود أن أجمع بين الدراسة والعمل فهل تسمح لي بالعمل في الشركة في المساء، وسوف أتفرغ في الصباح للدراسة.

فضحك العم وقال: حسنا يا بني سوف ألبي لك ما تريد وعليك أن تثبت جدارتك؛ فالشركة يوجد بها العديد من الكوادر المميزين وأنا أثق في تربية أخي.

ومن ثم ذهب أحمد للراحة قليلا كما هو حال عمه وفي تمام الساعة السابعة مساء من يوم الخميس اجتمع أحمد مع عمه ودار حديث طويل حول القرية والمزرعة وسط إعجاب العم بابن أخيه حيث وعده العم بالعمل في الشركة بدءا من يوم الأحد.

وفي تلك الليلة لم ينم أحمد مبكرا كما كان يفعل في القرية فبات يفكر، ومع ساعات الصباح الأولى من يوم الجمعة تأخر العم في الاستيقاظ لحين أداء صلاة الجمعة ليذهب برفقة أحمد.

ومن ثم توالت الأحداث سريعا ومضت كلمع البرق ... أصبح أحمد اليد اليمنى في الشركة لعمه وسكرتيره الخاص إلى جانب مواصلة دراسته في الصباح والعمل في المساء في تجارة الأدوات الكهربائية.

وبدأ أحمد يكبر حكمة ونضجا وفكرا لكن قلبه ما زال صغيرا حنونا عاطفيا.

وفي أحد الأيام وُجدت رسالة من أحمد كان قد تركها في صالون المنزل الكبير وخاصة في رف الكتب الذي تعشقه سارة والذي كتب فيها:

"ابنة عمي أشعر بأنك غير غريبة إطلاقا يجمعنا عرق واحد ودم واحد فأنا أعجز عن التعبير عن وصفك وعن مشاعر عفيفة التصقت بروحي دون رغبة دونية، وليست إعجابًا، فقد خفق قلبي بشدة وأنا أناظر تحركاتك وقيادتك للمنزل وكمية من الحب إن لم تكن متبادلة".

وجدت سارة الرسالة فخبأتها سريعا قبل قدوم أختيها خشية من عقاب والديها.

تدرك سارة بأن فكرة الحب تسيطر على الشباب والفتيات في سن المراهقة ظنا منهم أنهم نضجوا، فرحلة البحث عن النصف الثاني ليست مسلسلًا، فالحب من أول نظرة قد يكون خداعًا، أو وهمًا فالشكل الخارجي ليس كالجوهر الداخلي، وما بين الإعجاب والحب قناعة وليس نظرة فقط.

ما زال أحمد ابن العشرين عاما لم يكمل دارسته وتبقى له سنتان برغم قناعتها بأن أحمد ابن القرية، ويحتاج سنوات حتى يتأقلم في المدينة.

وفي كل يوم بعد انتهاء ساعات الدراسة والعمل يندب أحمد حظه في غرفته، وفي انتظار من سرق قلبه، ورقت له المشاعر، وجذبته دون سابق إنذار.

تساؤلات ليلية تثير شجونه في زوايا غرفته الخارجية في قصر عمه ليطلق العنان لخياله.

هل الحب ذنبًا؟ وما هو الحب؟ وهل يقع الحب من أول نظرة؟ وهل للحب قواعد؟ وهل للحب نسبة من النجاح؟ وهل يلعب العمر دورًا في الحب؟

وهل الجمال شرط في الحب؟ وهل يحب الفقراء أم الحب للأغنياء؟ وهل الحب ينتهي باللقاء؟

نام أحمد بعد تفكير طويل وطويل... وهو يشعر بضيف جديد يريد الدخول لعالمه، ولكنّ شيئا بداخله يوقظه كلما سرح؛ فوصية أبيه وتحفيزه بالتركيز ثم التركيز ولا سواه في دراسته لتحقيق حلمه، وحلم والدته، وأولى خطوات النجاح في نظر أحمد هو عدم اهتمامه بالمشاعر العاطفية واستثمار وقته في التحصيل العلمي.

رفض أحمد الاستجابة لأحلامه العملية حيث غلب قلبه عقله وكتب رسالته الغرامية من مقر إقامته في غرفته حيث أصبح صديقا وفيا للدفاتر والأقلام متغنيًا متشوقًا متلهفًا إلى لقاء ابنة عمه في حديث منفرد بعد أن حاصره الشوق بين أركان غرفته، وقال: أفتقد نفسي هذا المساء، وينبت الشوق في داخلي، ويتنامى حبك كل ليلة، وبين دمعة تسيل، وشمعة تنطفئ بات البعد لا يطاق، قريبة مني بعيدة المنال.

يزداد الشتاء، وتغطي الأمطار الشوارع، وسطوح المنازل، فيثور الحنين يقلب الذكريات، ويفوح الشوق إليك يا سارة.

ومع كل مساء أستمتع بالوحدة، فروحي باتت مرهونة، فعقلي في القرية، وقلبي في المدينة.

واصل أحمد كتابة الرسائل الغرامية فقال: أتنفس من خلال رسائلي إليكِ، وقد كتبت لك في المرة السابقة ولم أجرؤ على إرسالها، سأحدثك عن عبير أشواقي وكيف أداري وحدتي في ضجيج المدينة؟

مؤمن بأن الحب حين ينبت من بذرة صادقة لن يموت مهما كانت الظروف.

الناس حولي يقرؤون الشوق، فبين مقلتيّ العشق فاضح، وفي كل ليلة يزورني الحنين الجارح، فلا تجعلي من ردود أفعالك، وتجاهلك لرسالتي الأولى مقبرة لأحلامي.

أيعقل أن يبقى العشق ثابتا في زمن تتغير فيه النفوس والطقوس، فالشوق في القرية ليس كالمدينة، فهل الشوق في الواحدة ظهرا كالواحدة ليلا؟.

مضى عام، ولم يتلق أحمد رسالة من سارة، ولا يدري ماذا يفعل، فهل يجرؤ على المصارحة أم يظل الكتمان صديقا وفيا له؟

بدأ أحمد يفكر كثيرًا، ويراجع حساباته، ويسأل نفسه هل خطواته الغرامية صحيحة؟ وهل حب ابنة عمه الثرية عيب، فهل ستقبل أمّ سارة أحمد القروي؟

واصل أحمد كتابة رسائله التي ظلت حبيسة الأدراج موقنًا بأن الحلم لا يموت، والورد لا يذبل حين يسقى، وإن مبدأه في الحب قد بدأ فخطوة الألف ميل كانت قد بدأت في قاموسه، ولن يتراجع أو يحيد عن الطريق.

كتب أحمد ذات مرة ولن يقرأ أحد هذه الرسائل:

لن يموت الشوق ولن أيأس، ولن أعلن الحداد فمن يقنع الشوق بأن القناعة في حبك كنز، وليس كل غياب يغلق الأبواب، فعلى منصة الغرام يرتل الشوق لك لحن الخلود.

عامان من الرسائل والألم والحسرة والخوف في نظر أحمد، يفتح التساؤلات التي لم يجد لها الجواب فهل سيموت الحب؟

فحين يكون الشوق من طرف لن تكون النتائج سواسية في منصات الغرام.

هل سيقرر أحمد مواصلة الرسائل قبل تخرجه.

قد كتب أحمد سيلا من الرسائل التي ضلت الطريق إلى سارة نتيجة الخوف.

تستمر تساؤلات أحمد الداخلية، ويبدأ الشعور بالغربة، ومن دلائل الشوق بات أحمد يعيد قراءة الرسائل السابقة، والتي يحتفظ بنسخها في غرفته الخاصة التي يقيم بها في منزل عمه، والتي تتزين بالعبارات الرومانسية على جدرانها.

عرض أحمد قصته على صديقه في الجامعة فؤاد ، فقال له فؤاد:

-من المفترض أن يكون الشوق عادلا بين بنت المدينة وابن القرية، ولا يزور قلبا ويترك الآخر في غياهب.

واصل فؤاد الحديث مواسيًا صديقه أحمد فقال: "معظم الأشواق موجعة، وحين يبلغ الشوق ذروته تضيق السبل إلى القلوب.

ومصيبة الشوق الصادق الذي يتجلى بين القلوب لذته بين ضجيجه الداخلي، وبين الملامح الخارجية حيث لا يستطيع المرء مغالبته.

لن ينتهي الشوق، والقلب يدري وهي تدري بأن الحب حين يهلل ويكبّر سيصمد أمام الظروف ولن يضيق ذرعًا".

أحمد يفضفض لفؤاد:

-من الصعب جدًّا تحمل هذا الكم الهائل من الشوق فحجم الشوق الذي بداخلي سيغطى القرية بأكملها، بل المدينة فوحدة قياس الشوق هي ذلك الشعور، وتلك اللقاءات العائلية البريئة ولكن قلبي ربط بميثاق عهد لن ينقضه الزمن.

انقضى عام فتخرج أحمد من الجامعة من كلية إدارة الأعمال، وحصد المركز الأول مع مرتبة الشرف، ونال شهادات التفوق.

والشهادة الجامعية تعني فجرًا جديدًا وحياة تعليمية مشرقة بالنسبة إلى أحمد.

وقد أعدت العائلة حفلا جميلا ومبسطا وعائليا لأحمد، اشترى الجميع لأحمد الهدايا ومنها سيارة من عمه وهدايا تذكارية من العائلة الكريمة وصندوق خاص من سارة.

ما إن انتهى الحفل وسط فرح وجو عائلي لا يخلو من المرح والحديث اللطيف أتى الليل وفرش الظلام رداءه، وغاب القمر في ليلة شديدة السواد دامسة الظلام.

ذهب أحمد إلى غرفته منهكا ومرهقا كلما حاول النوم تردد، فهمّ بفتح الصندوق الذي كتب عليه في الخارج من سارة لكنه قرر فتحه لاحقا.

وكان أحمد قد أنهى كافة الترتيبات للعودة لزيارة قريته، ولم يَشعر أحد من بيت عمه فموعد رحلته مساءً.

أم سارة تسأل بنتها في أثناء حوار عائلي خاص.

-هل تفكرين يا ابنتي في الحياة الزوجية؟

البنت: يا أمي المستقبل أمامي وما زالت طفلة صغيرة.

ضحكت الأم بصوت عال وقالت:

- حينما كنت في سنك قد أنجبتك.

سارة: يا أمي، أنا لا أريد رجلا يتزوج ليؤدي وظيفة معينة أو يرضي مجتمعا، فالدخول في الحياة الزوجية يحتاج الجدية، فالزواج المزيف والذي لا يبنى على التكافؤ والحب يعتريه التفكك.

ردت الأم:

-الرجل الذي يخشى تحمل المسؤولية، ويفضل الحياة السهلة ويعيش اللحظة دون الإعداد للغد لن يتحمل بناء أسرة، والرجل الأناني لا يستطيع المواصلة حين تغلب المصلحة الخاصة على العامة.

السهر، والضحك، واللهو، وكثرة الأصدقاء والانشغال بهم وقضاء جل الأوقات برفقتهم تفقد الحب بريقه، فالحب يعيش بالاهتمام والرعاية كالطفل الصغير، والشاب الذي يمنح وقته رفقاء الضياع سيتناقض ذلك مع أساسيات الرجل الذي يحترم الأنثى، ولا بد من شجب كل النظرات الخاطئة في الحياة.

سارة:

- هل تقصدين العزلة يا أمي؟

- لا، فالحياة ليست عزلة، فالطائر الجميل يعيش في القفص يغرد ويمارس حياته الطبيعية ويسعد من حوله.

وأكملت الأم:

- يا ابنتي، ثلاثة أمور دونيها وضعيها في صندوق حين تشعرين بها أخبريني.

سارة: وما هي يا أمي؟

الأم: الاعتراف والحقيقة والحب؟!

يوم بائعة ..

ينساب صوت الأذان ثم يبدأ يتلاشى، ومع أشعة شمس الشروق أصوات العصافير تتألق وتغرد، والبيوت القديمة والأكواخ العريقة تتناثر على جنبات الوادي، وحتى أشجار القمح التي على ضفاف الوادي بدت هي الأخرى كفتاة حسناء.

كانت فاطمة تراقب مياه الوادي من بعيد حتى انقضى الشروق فهبت نسمة عليلة، ومياه الوادي الباردة تبعث في نفسها شيئا من الأمل، وكعادتها تستقبل يومها بلون يشبه الأشجار التي على ضفاف الوادي.

عشرات الفوانيس بدأ يخفت وهجها ويتبدد ضوؤها، صدحت أصوات المواشي ونساء القرية الجميلات يرفلن بالنشاط كالضباء، ورجالها الفرسان كالخيل في السباق، وأطفالها يحملون الأواني تارة خلف وأخرى قبل الأمهات نحو زرائب الأبقار.

تذكرت فاطمة أمها التي ماتت بسبب الوباء قبل عام، وفي لحظة ذهول رأت أمها ترتدي الثياب البيضاء ناصعة البياض تنادي: "يا فاطمة لك غرفة بجواري"، فراحت فاطمة تجيب: "طال الانتظار".

وهنا استيقظت ليلى ثم تظاهرت بالنوم لتراقب أختها بصمت والتي استيقظت من أضغاثها.

لتقوم عقب ذلك بترتيب (بقشتها) و (زنبيلها) للبحث عن رزقها وقوت يومها في فجر يوم جديد، وكروتين يومي تنوي التجول بين المنازل الصغيرة في قريتها والقرى المجاورة.

تعيش فاطمة ذات الخمسة والثلاثين عاما صاحبة البشرة القمحية والوجه المنمش والفم المفتوح حياة الكد، حياة البؤس فهي في حداد يكاد لا يفارقها ليس لفقد أمها فقط بل إنها تثقل كاهلها أيضا بأبناء أخيها الذي لا يعمل.

وتسكن فاطمة على ضفاف الوادي في منزل متواضع يسترها مع أختها ليلى والتي تصغر منها قرابة خمسة أعوام، وأخيها يوسف ابن الأربعين عاما.

ومن ثم استيقظت ليلى على وقع ضجة أختها فنظرت لها من تحت الغطاء لتقرأ عينها الناعسة التي هشمتها الظروف وأناخت بها نوق الأسى والشقاء ثم رمت غطاءها ونهضت واقفة لتهمس لأختها: " لا تيأسي يا أختاه هذا اليوم سيكون أفضل من سابقه".

ومن ثم دار حوار مقتضب بين الشقيقتين.

سرحت فاطمة قليلا ثم قالت:

- يا أختاه هل أنتحر وأغضب اللّه، فلم أعد أطيق هذه الحياة، هل نرحل لقرية أخرى ربما نجد رزقا وفيرا؟ فكل ما في هذه القرية يذكرني بالجفاء والعناء، والآلام لا تنقطع، في كل يوم أتنفس هما وضجرا، ولكن ألا تتفقين معي بأن حالنا أحسن من غيرنا فلماذا نرحل دعينا نقض عاما آخر هنا.

أشعر يا ليلى بأن الزمن غدار وهناك أسرار كونية، ففي الليل يسامرني الأمل في وحدتي، فقد حملت أوجاعي، وأتيت مذنبةً تائهةً للصباح بحثا عن أبواب للخير.

تفاعلت ليلى مع فاطمة فقالت:

-هل ترجين التوبة وأخطاء الماضي لن تغتفر؟!

يا أختي هل تريدين نصيحتي؟

فاطمة: تفضلي.

ليلى: ولتعلمي يا أختاه قبل أن أدلو برأيي أننا ماضون في هذا العالم بالحزن والفرح والهيام والعشق، ولا نخشى سوى الموت!

فاطمة: وما مناسبة هذا الحديث؟

ليلى: " الحياة أمامك يا أختي فلا تحملي نفسك فوق طاقتها، وقد تكون حياتك يسيرة، وربما عسيرة فنحن نضع السكر في الوعاء لنشرب الشاي كمثل من يضع الملح في الطعام، فقد اخترت طريقا مليئا بالأشواك لست ملزمة به.

لقد خطبك شيخ القرية ثلاث مرات فلماذا لم توافقي وستعيشين معه في منزله وستجدين من يخدمك ويلبي طلباتك؟ فلماذا كل هذا التعب؟ فأخي يوسف لن يصبح مسؤولا عن عائلته وأنت في آخر كل يوم تتحولين لحصالة مليئة بالنقود يفتحها ليأخذها ويعيش يومه بسخاء.

ولبرهة كانت كلمات ليلى تضيء دروب العتمة لفاطمة، وتهيمن على مشاعرها الداخلية قبل أن تغرق في التفكير بحال يوسف وأولاده لتعود إلى هاوية القلق إن لم تعمل.

– إن وصية أمي بيوسف واجبة علي.

وبدأت فاطمة في ترتيب بقشتها، وكل الأشياء الجميلة التي يحب الناس شراءها منها، ولم تنس أن تحضر البخور والحناء وحلويات الأطفال.

في ذلك الصباح خرجت فاطمة وهي تترقب الخير وتتأمل يوما استثنائيا فيما تراقبها ليلى من شرفة غرفتها، ولا تدري لعل الله يحدث بعد هذا الحال حالا أحسن.

وفي كل يوم، وعند شروق الشمس يحل يوم جديد تستيقظ فاطمة باكرًا، وترى أحلام الخير مع ضياء الشروق.

تستنشق الهواء بعمق وأحاسيس الحب لأخيها وأطفاله تنبض ونسمات الهواء لطيفة ورائحة الصباح مفعمة بالعبق والندى يبلل الزهور.

ففي كل يوم تشرق الشمس أيضا وجسدها المرهق وعقلها الشارد يتصارعان، ولكن اليوم هو يوم مختلف لفاطمة وفي مخيلتها اليوم أفضل من أمس قلبها مليء بالحنان والأمل وعبارات العطف والرحمة تريد أن تنطق من صميمها.

وتواسي نفسها وتنتظر فرصة الغد، فالساعات بطيئة وصدى الألم الداخلي لا تبالي به فكلماته الخارجية هي ما ينبغي أن يعرف به الناس فداخلها عالم آخر، وفي خارجها عزيمة هي بمثابة علاج للأرق والقلق.

تصل فاطمة إلى وجهتها بابتسامة، لا تتذمر من زبائنها تحتضن صغيرهم وتحترم كبيرهم، ولعل من يشاهدها يبني من ابتسامتها الأحلام وينبض قلبه بالحياة.

في داخلها تدق نواقيس الألم، وفي عمق قلبها جراح لا تضمد، تحارب اليأس من أجل توفير لقمة العيش.

وتارة تسير بعجلة ودون تريث فهي تخشى أن يلحقها الليل وهي تتجول بين القرى المجاورة، وقد تتساقط بعض أشيائها، ولا تكترث لها، فهي تهرع مسرعة بين قرية وأخرى حتى تعود مع غروب الشمس إلى منزلهم.

تدق أبواب البيوت وتنتظر قليلًا فحين لا يصدر الجواب من الداخل، تتركه لتذهب إلى غيره.

تواصل فاطمة التجول من منزل لآخر، بعض الزبائن تسدد ديونها، والبعض يطلب مهلة أخرى، وآخرون يعجبون ببضاعتها خاصة النسوة اللاتي لا يذهبن إلى السوق، وثلة قليلة لا تقبل أن تدخل فاطمة منزلهم.

وعلى حصاة كبيرة في قرية خالية من الدكاكين وبجوار منزل مهجور أخذت فاطمة تحدث نفسها!

هل الحب خبزٌ أم الخبز حب؟

أيهما أهم ليستمر الثاني حيًّا؟

لماذا أرفض الفرص التي تتاح لي للزواج، ولم أكن جائرة أو قاسية بحق شقيقي فالحب هو الكائن الحي في داخلي الذي قد ولد، وهل سيجهض؟

أحببت أمي حبا جما فتعلمت مهنتها، وكلما اقترب مني الاختناق بعثت لقلبي برسالة أخرى حتى يبقى حبي حيًّا، ولا أريده أن يموت في مهده سأظل وفية لشقيقي.

تسير فاطمة في طريق العودة إلى منزلها الذي يغطيه الظلام والحزن، وفي طرقات قريتها الضيقة مرت بإحدى الفلاحات حيث التقت هناك بالعمة أم صالح حكيمة القرية.

بدأت فاطمة تتحدث عن الحياة وصعوبتها وعن الحب الأول -أي أمها- وما خلفته وفاتها من تبعات.

فقالت لها العمة أم صالح:

- تبدو الأشياء رائعة حين نجربها لأول مرة، فالأكل بعد الجوع له مذاق خاص، ويختلف حين نشبع، فالتجربة الأولى عذراء، فلا تندهشي يا بنتي من مستقبلك حين يكون غامضًا.

بين الفينة والأخرى ستولد لحظات فرح علينا أن نتلذذ بها وحين يبدأ الحب بالشيخوخة فأطعمي حبك واسقيه فهو يمنحك القوة، ويعلمك الوفاء والتضحية، ولا تتهمي الأيام بالتقصير.

فاطمة صامتة ومصغية جدا لحكم العمة أم صالح.

ثم تطرح عليها سؤالا آخر.

وما علاقة هذا بحالي؟!

الحب والماء ثنائية.

العمة أم صالح تطرح سؤالًا على فاطمة بحثًا عن تشخيص حالتها، فالطبيب ليس طبيب نفسه في حالات كثيرة تأخذه العاطفة، ولا يشخص علته فالمرء يا بنتي لا يرى عيوبه.

فهل سرت بخطوات ثابتة لتحقيق طموحاتك وهل تستطيعين قول لا حين يكون الموقف بحاجة للرفض؟

إن كنت سرت نحو السلام حتى تحققي أهدافك، فأنت أكثر عقلانية، وستكون أحكامك منطقية.

وفي الجزء الثاني من السؤال قالت لها العمة أم صالح:

قد يكون الوقوع في أمور ما -لا علاقة لنا بها محيرا للغاية، وحينها لن نصدر أحكامًا منطقية، فقد نسعى من خلالها لإشباع رغبات مؤقته تنتهي باللقاء أو المساعدة أو التعاطف، وحشر أنفسنا في أخطاء الآخرين على حساب صحتنا ووقتنا، ولن يجعلنا نتقدم أو نقرر المضي قدما.

انتهى درس العمة أم صالح، وانسلت فاطمة لترجع من حيث أتت، فالشمس توشك على الغروب والفوانيس بدأت تشتعل وحركات البشر بدأت تخف ومع الليل ستنهض حركة المشاعر مع ظهور النجوم وسينشط يوسف شقيق فاطمة ليصبح جيبها خاويا كالمعتاد، وحظ الفقراء ما زال في أكواخهم، ولن يحضنه الترف والبذخ.

ستبيت فاطمة تتحرر من الآهات، ستنفرد بنفسها، تنزع عن روحها الألم، تتحلل من كل شيء يعكر جوها، ستلقي بهمومها بين مياه الوادي، ستجرفها إلى حيث لا تدري، ستعود في الصباح الباكر، حرة متقدة ستحطم كل القيود.

حسناء ..

وقف سعيد أمام نافذته مستحضرا الماضي ولم يتخيل ذات يوم أن تتزوج حبيبته بهذه الطريقة فتأمل وتأمل، فبدأ حاجز الصمت ينساب مكسرا حاجز السكون فنظر من تلك النافذة نظرة مطولة ثم تنهد.

ما زال يشعر بالوحدة ويغض الطرف عن ثأره مع شيخ القرية ويعيش تحت نكسة الحنين والرحيل في قرية مجاورة لقريته أم الخير، فقد مر على حادثة طرده من القرية عشر سنوات.

فقد كرس حياته يتجاهل ما تحيكه له نفسه، وما توسوس لها من الثأر وقتل شيخ قريته فهو امرؤ ذو نبل ومروءة فقد اعتاد أن يتجاهل السفلة المغرقين في الشر حرصا على حياته.

ولكن ما بال وجهه هذا المساء يبدو كدرا وحاجباه ينعقدان، فكوابيس العودة تطارده لقرية أم الخير التي نفي منها.

كانت حسناء القرية قد اختطفها شيخ القرية منه وهي في صباها، وما أن غابت الشمس حتى سطع القمر في ليلة قمرية، ولم يكن يومًا عاديًّا عندما فكر سعيد بالعودة إلى قرية أم الخير، وكان قد غادرها إلى قرية مجاورة يجر أذيال الهزيمة، فقد هزمته الظروف، وصفعه الحظ

وخرَّ حلمه صريعًا، وكأنه طائر وقع من علياء السماء على الأرض، فاختلط دمه بحبات الرمل.

يحدّث سعيد نفسه بصمت: هل أعود أم لا؟، ولو عدت سيعيش قلبي في خضم المعاناة، وما أقسى من يحكم عليه جورا ليس لجرم ارتكبه.

ويتساءل إلى أين سيمضي والألم ينخر جسده ويفتت شرايينه، وستضيق به القرية التي لم تعد تتسع له، ولن يهنأ في نوم بعد الآن وسيرى حبيبته في كل حلم، ويا له من ضباب!

الحراك الكثيف في قريته وكثرة المهن هي ضوء الأمل الذي بدأ سعيد التفكير فيه للعودة، ولا بد أن يوافق شيخ القرية.

لم يعد سعيد يفكر في القرية فقط، فقد هجرها منذ زمن طويل مجبورا وكان الرحيل أمرًا صائبا في وقته للحفاظ على صحته، ولحماية نفسه من الأذى، ولكنه بدأ يخطط جديا وتدريجيا لإنشاء ركن صغير أو استئجار ركن للعمل فيه، وكان تفكيره منصبا على دكان صغير.

بعد تفكير طويل تبلورت ونضجت الفكرة في عقل سعيد، وبدأ يفكر في عرض لبعض المنتجات الشعبية والخفيفة.

نهض سعيد، وفي قلبه شوق للأحبة هناك في قرية أم الخير فهناك من يرقب عودته، وكانت النجوم تشتد سطوعا، والقرية لن تغفى فالقمر مكتمل، وبدأ سعيد يهيئ لوازم السفر استعدادا للرحيل على فرسه.

واقترب سعيد من القرية ولكن بعض المنازل ما زال يتدفق النور منها، وقد حام حول القرية، ولكنه تردد في الدخول مع قوافل المسافرين.

ومنذ الصباح حتى ساعات المساء الأولى وصبيان الشيخ يرقبون صنوف المسافرين والمغادرين حيث جلس أحد الفتية يراقب امتداد المسافرين من البوابة الغربية، وآخر يرصد المارين من البوابة الجنوبية.

ضرب الفتى بعصاه من البوابة الجنوبية حتى تناهت له أصوات المسافرين سمعا وطاعة ليس لدينا ما يضركم وما نحمله يسركم، وليس بيننا غريب، فدخلوا القرية آمنين مطمئنين.

شيخ القرية ما زال ينتظر عودة سعيد فقد نقل له أحد الوشاة في قصره عن تغزل سعيد بحسناء، حسناء القرية وقد راح ينشر القصص عن علاقته بها، فبدأ الشيخ يفقد أعصابه تدريجيا، والوساوس تطفو في قلبه، والشر يطوف حول عينيه.

بدأت شمس المغيب، ولاحت في الأفق ظلمة خفيفة، ومن بعيد بدأت أصوات أبواب القرية تتلاطم كالأمواج وأقفالها الفولاذية تأمنها والحراس ينتشرون هنا وهناك لردع قطاع الطرق وحماية أهل القرية.

أعلن شيخ القرية عن وليمة كبيرة، وقدم الدعوات للناس بمناسبة مرور عشر سنوات على تنصيبه حاكما للقرية وواليا عليها، وبدأت أصوات الموسيقى تصدح ومساحات قصره تتزين بالسجاد وسرب من الشبان يحملون أطباق الحلويات والضيوف يتوافدون من شتى بقاع القرية وآخرون يحملون أواني الطعام فالمائدة طويلة، ومنظر المصابيح كاللآلئ.

حسناء تتبختر في مشيتها كخيزرانة شعرها طويل وناعم وشديد السواد مقسمة الجسم ، الدلع والدلال لا يليق بغيرها، وتحفها عشرات الصبايا والنساء اللاتي قدمن للتهاني والتبريكات وفوق رأسها تاج يسحر العين مطلي بالذهب يبرق ووجهها يمتلئ نعمة فهي زوجة شيخ القرية الآمر والناهي في قرية أم الخير.

فجأة ظهر شيخ القرية وسار بين الجموح شاقا الصفوف حتى وصل لمكان جلوسه، ولا يحبه الجميع سوى لماله، مفتول الشوارب أشبه بكائن مخيف فهو قاسي الطباع، ابتسامته لا تطاق، فجلس ثم وقف

وألقى كلمته ككل عام، ويردد بصوته المزعج: "لا مجال للمتخاذلين وكل من تسول له نفسه في نهب خيرات القرية فهي ملك للقرية -وفي باطنه ملك له".

انتهى من كلمته، وتناول الجميع وجبة العشاء ثم هب الجميع للرقص، والنسوان تزغردن والقرية تعيش فرحة مدوية.

ما زال سعيد يقترب أكثر فأكثر ويختبئ بين شجرة وأخرى كاللص حذرا، ولم تفلح المخاوف في داخله من ردعه ومنعه من التقدم ويمر بلحظات صمت رهيب فعيناه تخفيان حزنا عميقا، وأنفه الأشم يعكس نقاء قلبه الغامر بالحب الذي لا يمكن أن يذبل.

تجاوز سعيد سور القرية الجنوبي، وقفز إلى الداخل، شعر بالألم، سقط ثم نهض، ولم يتأوه متحاملا على إصابة قدمه، ولكنّ شخصا ما شعر به مفتول الساعد فارع الطول أدرك بأنه سيذهب به للسجن أو شيخ القرية، وسينكشف أمره.

حاصره الرجل ثم سأله من أنت؟ ولماذا أنت ملثم؟ فهل أنت لص؟

خلع سعيد لثامه، فحدق الرجل به قائلا:

-ماذا قلت لي اسمك؟

أيمن أم عمر؟

سعيد يرد: أيمن الصغير.

-ولماذا تتسلل كاللص؟

سعيد يرد: إن الجو بارد.

الرجل: ولكن لا تبدو هيئتك هيئة لص.

صمت سعيد ثم نطق بهدوء: أنا من رفقاء التاجر سعد بن أسد وتأخرت في الدخول معهم ولا أريد أن تفوت مني هذه الليلة الجميلة في قرية أم الخير فهل تسمح لي بالدخول؟

وبعد سلسلة من الأسئلة ترك الرجل "سعيدا" يذهب.

تجاوز سعيد عقبة ويده على قلبه!

ثم سار بعيدا عن الرجل، فأخذ نفسا عميقا ثم قال: الحمد للّه فقد خلصت منه.

فجأة بدأت الأجواء غائمة وحراس الشيخ يجوبون أزقة القرية وطرقاتها ويحرسون قصره وساحة الاحتفال وحدود القرية في أمان.

أنباء عن جماعة مسلحة في أرض أم الخير والسماء تحتشد بالغيوم، بدأ رجال الشيخ يتصفحون الوجوه والقرية ما زالت تتأنق بالفوانيس والمصابيح المضيئة.

انتشر رجال الشيخ هنا وهناك بينما أبلغ الشيخ وبدأ يفكر كيف يعود لقصره ليحتمي فهو يدرك أعداءه، ومن يضمرون له الشر؛ فقد ظلم وظلم فبدأ مع نفسه يفكر بتفكير عميق، وهيمن الصمت عليه.

كانت الجماعة المسلحة تنتظر الفرصة لقتل الشيخ الظالم، وقد طالت لحظات الفجر، فانسل رجل منهم إلى قصر الشيخ يسير بخوف لكنه متريث خشية كشف أمره فدخل القصر، ولم يتردد في أن يضع سُمًّا داخل آنية الماء الفخارية فخرج الرجل ولم يكشف أمره.

شوق يتفجر في قلب سعيد وحلم يراوده ولو بنظرة من حسناء فقد شاءت الأقدار أن يحدث الفراق ولكن الروح ما زالت مقيدة، فليس من مفر هذا الليل.

أحد رجال الشيخ يعتلي منصة الحفل فيعلن عن خطر بالقرية وأهلها، فبدأ الصراخ والبكاء والأطفال يذرفون الدموع غضبا وشغبا في أرجاء القرية.

الشيخ يستدعي الحراس ويتحدث بغضب ويوبخهم:

-من الغرباء الذين دخلوا القرية؟ إنه أمر عجيب فما هي وظيفتكم أيها الحرس؟!

صمت كل الحراس إلا واحدا تمتم خائفا:

- لا لا لم يدخل القرية آدمي مسلح لا في الصباح ولا في المساء.

ساء الشيخ الخوف، فانصرف إلى قصره وما إن دخل حتى وجد حسناء مغشيا عليها وكوب الماء في يدها.

أمر الشيخ باستدعاء طبيب القرية، الرجل الوقور عبد الصمد فقال: لقد شربت سما ولا أملك لها علاجا وستموت بعد ثلاثة أيام، ولا بد من مكافحة هذا الداء بدواء، ولا يوجد سوى لدى الحكيم بلال في قرية النور والطريق لها يحتاج ثلاثة أيام ذهابا وإيابا بفرس يلزمها فارس مغوار.

الشيخ الجائر واللاهث يضع ربع ثورته ملكا لمن يتبرع بالذهاب إلى قرية النور، لا ينام في اليوم والليلة سوى سويعات لا تتعدى أصابع اليد الواحدة.

ومع شروق شمس اليوم التالي كلما حضر رجال وعلموا بصعوبة المهمة وقطاع الطرق انتابهم الخوف فترددوا.

وبعد عدة ساعات جاء بطل ملثم وقوي ومهيب، معه فرس يتحدث على مهل وهدوء، وعد بإحضار العلاج لكنه يطلب الأمان من الشيخ والنزول في قريته مدى الحياة، لكن عليه أن يشاهد حسناء فهو يملك أعشابا خضراء تعالج السم.

سمح له الشيخ، فطلب الفارس الملثم خادمتين لطحن الأعشاب، فجاء الشيخ بخادمتين ثم انصرف في صالون قصره لا يدري ماذا يفعل وأين يذهب سيفقد حسناء وسيموت جنينها فهي على وشك أن تضع له وريثا.

الفارس الملثم طلب من الجميع البقاء في الخارج فكشف عن نقابه، فتفحص حسناء بمودة واهتمام، انحنى قليلا فقبل جبهتها، وقدم نفسه: أنا سعيد أنا سعيد يا حسناء هل تعرفينني؟

هزت رأسها، هزت رأسها:

– نعم.

فقال سعيد بجرأة: أنا أحبك ولن تموتي.

سعيد ما زال يتشبث ببصيص أمل برغم الظروف فأي عواطف يجيش بها لحسناء!

واليأس يرتسم على وجهه.

خرج سعيد منكسرا لا يملك حلا ولا يستطيع أن يتنبأ بمصير حسناء وشفائها.

فنظر للشيخ وقال في تنهد:

-اللّه كريم، إن ماتت فأنت السبب.

فلم يرد عليه الشيخ.

وصل الباب فسمع الصراخ.

التفت فقالت الخادمة:

- حسناء ماتت يا شيخ.

أثير الريف ..

حقا إن الدنيا فانية ومرحلة عبور في نظرية من لا يملك شيئا، وحدهم من يؤمنون بأن من في الكون سيغادر ذات يوم، فوحدهم من يطلبون الموت، وما زال الحب نهر الجميع الذي يتدفق وتنفجر منه ينابيع الحنان.

عبر أثير الريف يسامر خالد النجوم بصوته الشجي وهو يجلس على ذلك الرصيف برسائل من الحب لا يدري أن سيصل مداها:

-ومع أثير الليل تهرب رسائل الحب من شرفتي، وأحار في بسمتها، وأتلمس ملكوت همسها، وتحت الماء أمارس طقوس الطهارة من دنس ارتكبه قلبي فحار الأطباء في علاجه، وأبيت الليل متضرعا، فمن يرأف بحالي.

أيها الغائبون في مكان ما هنيئا لكم بحياة خالدة، وإن تلاشيتم عن الأنظار كالجليد المنصهر الذائب من أشعة الشمس فسأجمع الماء في وعاء مرة أخرى، وأبني مدينة من الثلج.

القلوب المجروحة كالبيوت الفارغة التي تركها أصحابها ورحلوا إلى مكان ما بحثا عن الخبز، والمستقبل والراحة والخلود دون عناء، عدت

باحثا عن الحياة والحب والسلام، ولم أجدهم، وما زال منزلهم مشرعا للمارين ولن يجدوا فيه ما يسرقونه.

وفي منزلهم سرق قلبي!

هنا عبر هذا الليل وأثيره الصاخب عبر كل المنابر أحببتها، ولا أستعرض مهاراتي في الغزل والغرام والفقد فكم تبعثرني تلك الذكريات؟

وفي مخيلتي من يشبهها، وربما هي، فتعصف بحروفي حين تزور طيفي وتغرق المعاني بين تقاسيم خصرها.

الحب بحاجة إلى مخزون ليس ثقافيا فحسب، وليس سيلا من المفردات والمعاني البديعة فالحب بحاجة إلى مخزون الصبر والبحث عن الهدف والتسلح بالسلام والرحمة والأمان.

إن الحب ليس صناعة أو تجارة رابحة أو خاسرة، وليس مشروعا يحصد الأموال، بل يقوم الحب على الأحاسيس، والهمسات، والتضحية.

وللحب لآلئ باسمة، وعيون مزهرة وآهات موقدة، ويتحرر الحب من القيود ويولد من رحم اليأس، وينشأ ربما من نظرة، وتمطر السماء وتمطر قلوب العاشقين وفاءً وشوقًا.

ومع عزف الناي الحزين أسلي نفسي فأردد:

هي الخبر هي القمر،

وهي العشق والسهر،

وهي الشتاء والمطر.

قصتي لم تروَ عبر الصحف، وقلبي الوحيد لن يروى، والغياب ينخر جسدي، وتشرق الشمس ويمد الأمل كفيه، وأقبّله وأرضى بالقدر.

وحده الليل يشبهني في كل تفاصيله ظاهره هادئ وباطنه كأمواج شاطئ.

هي الأحلام أنسج منها خيوط الصبر، وهي كمثل الرغيف للفقير حياة ومأوى ومطر وزهور، وأشياء تسر الناظرين.

وحبلى هي الأيام وماذا ستلد؟

غياب أنهك الجسد، وانتظار يخبئ للعاشقين السهر والحنين والألم.

وماذا عن وحي القلم؟ في كل ليلة حروف ووميض وأرق ومعاني تنفث الماء.

وكيف سأنجو من عبث الحظ؟ جئتها طفلًا رضيعًا يسقط عني الحمل والهم، وفي حبها أصبحت مجنونا فهل يقبل الخطأ؟!.

وما حكم قبلتها؟ والليل مع طيفها رحلة إلى المدن الحزينة.

ما زالت ذاكرة القرية تحكي التفاصيل:

ففي القرية هموم الإنسان العاشق تدافع عنه لا تحكي التفاصيل فحسب بل تحرس وتحفظ فتوضع موضع التقديس.

الوفاء قبلة وفرض واجب، وتعقد المواثيق حتى آخر نبضه، الصدق جوهر الجمال يمنح اللذة يمد بالحياة.

تعتقل الذاكرة الجفاء، وتكسر جناح النسيان، ولا تغفو عن اللحظات الجميلة، وفي الوجه يتردد صدى الذكريات بين التجاعيد حكايات وحكايات.

انحنى خالد على البئر، ولم يشاهد شيئا في الظلمة، فانتظر حتى الصباح فلم يجد من يقرأ وجهه ثم نظر في البئر مرة أخرى فشاهد وجها مصفرا وباهتا فخطوط الشوق عليه واضحة جدا.

عراك بين الصمت والكلام، فصرخ الكلام وضج المكان منفعلا، فظل الصمت صامتا فنادى مناد، إذا انطفأت عيناه زفوه إلى القبر.

لم يعجبه التشبيه ثم نظر إلى البئر فقال: إنه كخزانة نقود، وتنور رغيف وحدهم من يعرفون ذلك.

استرسل خالد وغاص في أعماق ذاكرته ثم قال:

- يا ترى لماذا يترك أهل الريف حياتهم؟

وما بال أصحابه الذين يعيشون حياة هنيئة يتذمرون ويتذمرون؟

إن الريف بمثابة نافذة مفتوحة وصفحات تنشر البساطة والتعاون ونموذج للفريق الواحد فماذا لو طبق ذلك على المدن الكبرى بل على الدول سينعم الأمن، سيعيش الجميع بسلام، وسيموت الحقد، وستنتهي الحرب حين يعم الحب كافة أرجاء الأرض.

في الريف لا مجال للضيق فالحرية متاحة لجميع الكائنات، ولا عيش مع الجريمة فالجميع يعيش بشفافية فوق تربة خصبة مزهوة بأشجار وثمار وعصافير جميع المواسم تأتي بكامل زينتها ولكل إنسان حالم لوحة جميلة يرسم بها ما يشاء ويلونها كيفما شاء.

رشرش خالد الماء على وجهه، ومن ثم ابتسم فعاد لشرب قهوته فوجدها قد بردت وهي بين يديه، فيما شربت روحه الظامئة من عبق المكان.

وازدان المكان بالشمس ثم انجلى كل شيء يبين عن شيء كم هي رائعة تلك الشمس المستديرة والتي تشهد على الحق، ثم اضطرب خالد وشهق فأغمض عينيه، وشرب قهوته.

ارتعش خالد ثم رحلت الكلمات في أقصى الأعماق، وفي أعماقه أطلق شريط الذكريات.

استدعى طفولته ثم أوقضها، وزرع فيها البساتين، وبنى أعشاشا للعصافير، وفي الذاكرة جاذبية للحنين.

استرد ما يمكن استرداده ثم لملم أشياءه بهدوء، فتنهد ثم تمدد ، ولم يعد يقوى على حرارة الشمس.

أبصر خالد فشاهد تلك السدرة، اقترب منها فوجد أغصانها قد يبست، وأطرافها مبتورة ومحروقة، فيا له من منظر فضيع، فظلها أجهض ونفعها أصبح في عداد الموتى، وكم كان حقيرا ذلك الفأس؟!.

قدم لها الماء، طلب منها النهوض فلم ترد!

ثم شرع في البكاء.

ظل كئيبا لا راحة، ولا استنجاد فأين سيختبئ من لهيب الشمس؟

عينان ناعستان، وجسم نحيل.

ملابسه الفارهة سيتخلى عنها، وسيتنازل عن عطره الباذخ، فشدة أشعة الشمس تحوم حوله، ولا يدري أن سيعتصم لثنيها.

يسأل خالد نفسه هل هي إهانة أم اكتشاف؟

لعبت الشمس لعبتها، فكابوس فظيع تسرب في هذا اليوم، أحلام مذعورة، وتناقضات مؤلمة.

أدخل يده في جيبه، وأخرج محفظته، وجد صورة قديمة احتضنها مرة ومرتين ثم عشر مرات ثم خبأها، فتخيل سريرا فاخرا، وفراشا حريرا، ووسادة ناعمة، ولحافا دافئا، وبدا تلاعب خصلات شعره الطويل.

حاول أن ينام ثم اكتشف أنه ما زال بلا سرير ولا فراش ولا وسادة ولا لحاف ولا يدري إلى أين يمضي فالنوم بدأ يغزو عينيه.

بدأ يحثو التراب ويكتب بإصبعه على الرمل: أنا هنا في هذا اليوم والتاريخ.

ثم رفع رأسه إلى السماء وتضرع بالدعاء يسأل اللّه أن يؤتيه مخرجا مما أصابه فقد طال الانتظار، وتقلصت الفرحة وتلاشت الابتسامة.

نظر هنا وهناك ثم أيقن بأنه لا يستطيع أن يهتف، فحاول أن يجرب فصرخ صرخات باهتة، ثم تذكر بأنه يملك أعواد كبريت.

أدخل يده في جيبه فأشعل النار فيما تبقى له من جذور!

ثم أدار ظهره فسار، فلم ينتبه له أحد.

وحدها النار من سترصد وجوده المثير!

استيقظ خالد من حلمه، وكانت محطة القطار مكتظة بالمسافرين عبر طوابير لا يعرف بدايتها ونهايتها، والنداء الثالث حان، وخمس دقائق على إغلاق بوابة المغادرة.

عصفور الظل ..

مؤلمة هي الذاكرة حين يتمدد ظلها، وحين لا تغفل عن شيء تظل تختزنه بأدق تفاصيله، وأقسى حين تستكين كحد سكين تستحضر الماضي الحزين.

أمل التي تبدو كلؤلؤة خرجت من صدفة جميلة، طفلة صغيرة نشأت لا تعرف شيئا عن المكر والخداع حتى غدت فتاة جاوز عمرها العشرين سنة، وقضت العشر سنوات الأخيرة من عمرها في عذاب لا يطاق وجحيم أشبه بحطب في نار.

وأي عذاب هي فيه لا تستطيع الحديث، ولا الإفصاح، والصمت قاتل يتجرع صاحبه مره، وفي الثلث الأخير من الليل تتضرع بالدعاء إلى رب السماء.

ما زال البحث الدائب عن حل هو ما يشغل ذاكرة أمل، كم هي خيبة أمل أن تعيش ترفض كل الفرص المتاحة للزواج، فلم يصدق أحد مبرراتها بإكمال دراستها الجامعية، ثم التفكير في الزواج فما زال رفضها المستمر لفرسان الأحلام مثيرا للغاية بل محيرا جدا وجدا.

أمل التي تسكن الأرض تتمنى لو تنتقل إلى كوكب آخر؛ فجروح كوكب الأرض الملغمة بين شرايينها عميقة، فالعواصف تجتاح بواطنها همّ، وكدر يعكر صفوها كلما مالت هدّ شوامخها ذاكرة الماضي الكئيب.

وعلى شواطئ الحزن تقف أمل متناقضة بين السر والعلن، وما تحمله كواهلها من وجع يتناثر وسط رياح حائرة ومتاهات من القلق، فالخوف يكتسيها، وهي تدرك حجم البوح كم سيكون خطرا، فهي تتوسط موجات بين الوهم والحقيقة، التشبث بأحدهما سيكون مغامرة.

لم تلتق أمل ذات يوم بشاب، ولا تعرف عن العلاقات العاطفية شيئا، وكل ما يهمها أن تلعب بشغف، وألا تتوقف ابتسامتها البريئة.

وذات يوم كانت تلهو كطفلة بريئة تتنفس مرحا وتطمع في مزيد من الألعاب تجري وتسقط تم استدرجها واحتال عليها بخبث قريب لها، وغرر بها كذئب توحد وانفرد كفريسة لرغبة دونية، فارتكب جريمته دون إحساس وذمة وضمير.

وعلى رصيف الذكريات كالظل تلتقي روحها اليتيمة تستذكر الماضي، وجسد نحيل أدمن الألم يأبى الانكسار، وأصوات يولدها

الصدى، تستعر حسرة، وضيما، وتتلطخ بدماء لولا الصمت لأعقبها صوت من البنادق لا يتوقف زنادها، ورؤوس أجرمت ستقطف لا محالة.

تبيت شهيدة رغم أنها تنعم بالحياة في غرفة أشبه ما تكون بزنزانة سجينة رغم أنها تعيش الحرية، وتحتضن الزوايا، وتعانق الجدران، وفي قلبها ماضٍ حقير أوصلها إلى قمة الحزن واليأس.

أمل فاقدة الأمل، ثلاثة حروف من اسمها تصنع المستحيل، أرهقتها الأيام وجعا وتتدرع بالصبر مضادا حيويا.

الأشباح تلاحقها تتوسد أنفاسها، والهلاك يوشك أن يستوطنها، فكتلة الصبر تكاد أن تذوب، فنشوة القوة قد تفر منها هاربة عندما تستذكر تلك الصورة، فقلبها الصغير لا يحتمل يخفق والوصف مشفر، غرائز دونية ونزوة شهوانية لا تتوارى عن الأنظار.

أصبحت أمل تعيش لتغزل القهر، فأرصدتها تتزايد جراحا مثخنة، فقد طغى العنف على طفولتها وأصبحت تعيش مضطهدة لا تدري إلى أين سيأخذها القدر فهي تبحث عن الهجرة إلى عالم المثل، إلى عالم أفلاطون وليس الانحطاط.

تفكر وتفكر كيف ستعيش بصفاء؟ وإلى أين سيجرفها الحظ؟

بين الماء فقدت صورتها فلا تريد النظر فهي تخشى الغرق، فذلك الجسد الطاهر انتشر به الدمار، وأصبحت الروح آيلة للسقوط فالعمر كالمراكب التي تسير، ومن سيجبر بخاطر مكسور، ويزود وردة ذابلة بوقود الحياة والأمل؟!

سيجتمع الناس وسيلقون اللوم، والقليل جدا من سيخفف الألم، فمسيرة الحزن قد بدأت خطواتها وستبني قصرا من الندم.

تلك اللحظة اللعينة تغتال تلك البراءة، ولا مفر من الذكرى فتلك الابتسامة أجهضت في مهدها تمزقت إلى أشلاء فمن يجمعها ومن يسكن تلك السكاكين فقد تناثرت تطعن، وليتها كانت قد قطعت الأمل ولكنها كمثل من حكم عليه بالإعدام وما أسوأ أن تموت ببطء، عذاب بلا مفر.

فتلك الزهرة قد قطفت قبل أن تنضج، وتحت تلك الغيمة ضلال وظلال تفيأها الشر، وسقط الطهر ظهرا جبرا لا خيارا بين تلك الأشجار الكثيفة، وروح تفيض ألما، وراحت تشدّ نفسها إلى مكان يسترها، ثم جثت تبكي وتبكي لا أحد يسمعها بين أربعة جدران لا يتعدى الطول العرض.

كانت نجمة تطل بنرجسيتها، وتنساب كشلال مبتسم، ثم باتت مبتورة القدمين من هول الصدمة لا تستطيع النوم، فطقس غرفتها البارد تحول لحميم، وسحقا لتلك الطفولة التي ستعيش على المهدئات في غرفة موحشة.

العذاب هو ذلك المارد الذي سيزور تلك الزهرة الذابلة، سيحولها إلى جثة في كل ليلة، ولن تقذف الوجع خارج الذاكرة سيظل يتعمق وسيطل على التفاصيل الجميلة إن بقيت ليحولها إلى مراسم للعزاء.

وفي كل ليلة تنظر للسماء المرصعة بالنجوم من خلال كوة في جدارها في غرفتها من الطابق الثاني، وتتأمل الشروق، وتترقب المستقبل بعيون خائفة، فالعالم حولها مخيف والفضاء مخنوق، فهي تقطر دموعا من دم، و قد هوت عذريتها جبرا كمن هوى به لسانه سبعين خريفا في النار.

تنظر من شرفتها أيضا للمارين نظرات ضعف، وعجز لا شيء يشغلهم ممن يشغلها، فقد أصبحت ضحية تسكن بيتا كبيوت العنكبوت، لا تستطيع أن تسترد عافيتها، فتلك الخطيئة لا ذنب لها فيها إلا أنها تدفع ثمن صمتها.

تنادي ربها تستجير به، وتصلي على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، من سيجبر مصابها ومن سيقبل بها؟ ومن سيتركها في حالها؟

تطرح على نفسها أسئلة ولا تجيب!

تضج لياليها بالقهر، ولا أحد يسمع أناتها، تعيش مكبلة رغم حريتها، وهناك بعيدا عن الأهل والأحبة تواجه السموم تتحرك وهي مقيدة، وتشاركهم أفراحهم وهي حزينة، وتبتسم وهي تبكي من الداخل.

تبرق عيناها حقدا كلما لحمت من غرر بها وأفسد عليها حياتها لا تستطيع أن تتجنب تلك اللقاءات العائلية أي كانت في المدينة أو في القرية صيفا، أمام مروره ترمقه فينعقد جبينها يتلعثم لسانها تشعر بالاختناق تغرق بالدموع، ويغمرها الألم.

تلك الجدران الأربعة بين زواياها رعب وخوف، فالظلام يغمرها يوميا، ولا صوت ينطلق منها يبعث الأمل لأمل، لا نور يضيء المكان، فإشراقات الصباح تحجبها تلك الستائر، وفي الليل أصوات تضج بالغرفة لا يسمعها سواها أشبه بأصوات فحيح الأفاعي.

أمل تقف اليوم على مفترق الطرق هناك؛ هل ستعبر عن ألمها وعما يجيش في صدرها إلى أمها أو أحد أقاربها، أو حتى الذهاب إلى طبيب نفسي لتشتكي ما بها من علة؟

في كل الأحوال نبأ أمل لا يستطيع أحد يفك شفرته بعد عشر سنوات من الكتمان، من سيستطيع أن يسبر أغوارها، سيضع النقاط على الحروف، ألقت أمل نظرة الوداع على سرها الخطير، وقررت أن تكشف عنه.

وذات يوم خرجت من غرفتها لتستنشق شذى الرياحين في فناء منزلهم مساء ثم توارت شمس المغيب عن الأنظار، وكان يبعث النسيم في نفسها البهجة والسرور والابتسامة أظهرت تلك الغمازتين.

لمحتها أختها الصغرى شذى وهي تقطف الريحان فطلبت منها أن تستكين معها وأصرت أن تتناول معها كوبا من القهوة فوافقت أمل.

بدت شذى مبتسمة، ولا تكف عن تسديد النظرات الساحرة وسط دهشة أمل، ثم نطقت: جاءني خطيب.

أمل: مبروك يا شذى.

شذى: والعاقبة لك.

أمل: لا كلا، فأنا لا أفكر بالزواج حاليا.

شذى: صمتت ثم تظاهرت بالابتسامة، ووضعت يدها على شعرها الناعم، ثم أردفت قائلة:

- وهل هنالك عذر غير هذا؟

أمل: لا شيء أهم من دراستي.

شذى: شدي حيلك يا أمل ويا رب نفرح بك عروسة ودكتورة عن قريب.

ثم انصرفت شذى لتنزوي أمل في صالون المنزل.

ليل المدينة جميل وصاخب التلفاز أمام أمل مليء بعشرات القنوات فراحت تقلب بالريموت هنا وهناك بين تلك الفضائيات، لكن ما زالت تلك الصورة تومض في أعماقها قهرا أشبه بنفق مظلم.

هذا الليل يجر ذاكرة أمل أيضا إلى تلك القرية الجبلية التي شهدت تلك الطفولة قبل أن تنتقل للمدينة التي تحمل في طياتها روحا مشتتة، وجسدا مبعثرا.

ليس في هذا العالم ذنب وإثم مما ارتكب بحق أمل، فالسكوت المهيب يهمين عليها، فلقد فرّ من حياتها السلام والأمان وتمضي اللحظات وأمل لا تعرف للحياة لذة ولا تعرف عوالم السعاة والفرح والمرح.

عجبا لمن يضرم النور ويقتل أحلام الصغار، دقات عنيفة تكاد أن تزهق روح أمل كل ليلة وليس في هذا العالم من يحمل عن أمل همها، الدنيا تدور والأحوال تتغير، ستظل أمل تكظم حزنها.

تشتعل وتثور داخل محيطها، تحدث نفسها كالمجنونة، أسلحة الصمت طالت ترتجف ثم تدثر نفسها.

بدأت أنفاس أمل تخمد، فقد حاربت الصبر سنين طويلة كمثل من يحارب السرطان وعاقبت نفسها بما فيه الكفاية، وتحملت جريمة ليس لها فيها ذنب سوى أنها تخاف وتخاف أن ينكس رأس أسرتها، وتجلب العار لأهلها فيلوح بين الأقارب القطعية والحرب.

بدت السيدة سامية عاجزة عن القيام بإطفاء التلفاز وهي تمقت ذلك المسلسل ويا لها من قصة حزينة.

ثم بدأ منزلهم يغص بالوافدين ثم أيقنت متأخرة بأنها نسيت طعام الضيوف يطهى داخل الفرن فكانت تلك الرائحة المحترقة بمثابة جرس إنذار.

فأس ومزمار ..

أجد صعوبة في تحديد نقطة البداية لقصتي هذه، ولكنني قررت البدء من واقعة تقسيم الأراضي الزراعية في قرية ما، وحدث ذلك في يوم الخميس، ورغم أن الحديث الذي سيدور لا يمت إجمالا لموضوع القصة بصلة إلا أن بعض إشاراته الموحية قد تلامس الواقع إلى حد ما.

كنت قد أنهيت بعض المشاوير الخاصة التي كلفني أبي بها، ولدى عودتي إلى المزرعة قلت بطريقة لا تناسب أبدا من يؤم المصلين بوقار وهيبة: - من لا يرضى يأكل من التراب، وسنأخذ حقنا بيدنا -في إشارة قد تفهم أنها تهديد.

ابن عمي الذي على يميني قال:

- سيتخذ هذا الكلام ضدك أمام القاضي وسيشهد عليك الراعي عبده مزمار بأنك لوحت بفأس حاد في الأفق بطريقة توحي بأنك تريد أن تسفح دماء خصمك، ولا تريد قطع الأشجار للاحتطاب.

أما عبده مزمار الذي يعمل راعيا مع جيراننا فقد يحصل على فرصة أفضل لو منحته مبلغا من المال في الخفاء ومزمارا جديدا وسيتردد في الذهاب إلى القاضي.

ولم أتردد في الحديث لعبده مزمار فقد قلت له:

- سوف تحصل على امتيازات لم تكن تحلم بها إذا قررت عدم الذهاب يوم الأحد إلى القاضي.

ثم انصرفت منزعجا وعدت إلى داري.

وجدت زوجتي أمامي - واسمها راجية، وهو اسم مناسب لرجل يؤم المصلين ويخطب فيهم كل جمعة، فهي لا ترجو سوى الجنان، لا تنظر إلى الدنيا بعين الطمع- قالت لي:

- لماذا أنت غاضب يا أبا الحسن؟

لم أجبها فورا خشية أن يصل الخبر إلى أمي وتبلغ أبي فينزعج مني كثيرا فقد قال أبي لي مرارا وتكرارا: لا تختصم مع الجيران.

ودائما يردد أبي: الأرض أرض الله يا أبا الحسن دعهم يزرعوا في أي اتجاه فهي أرض كبيرة لن تكفي بيتين فقط، سيكفي خيرها جميع من يسكن القرية، فلا تكن عنيدا وأنت قدوة كثيرين في هذه القرية.

لقد كنت من الذين يرددون بأن على الأبناء الإنصات والإصغاء في حضرة الآباء والأجداد طالما هم بصحة جيدة، وعليهم أن يبقوا بعيدين عن التدخل في الأمور الثانوية حتى وإن كانت مهمة بالنسبة لهم.

عجزت مرارا وتكرارا عن إقناع زوجتي أم الحسن بأن هذه الأرض هي ملك لنا ولأبنائنا الصغار وعلينا أن ندافع عنها فليس هنالك وريث شرعي لأبي سواي، وبالرغم من أنها زوجة مطيعة وجميلة لكنها كانت كثيرا ما تختلف مع رؤيتي وتتصادم مع أفكاري حتى إنها تذهب إلى بيت أهلها.

كنت قد وضعت مبلغا من المال في سترة جيبي أود أن أدفعه للراعي عبده مزمار لاحقا.

ولكن جارة أم الحسن كانت قد اشتكت لها بخصوص وضعها الاجتماعي لأن زوجها أودع السجن بسبب عدم سداد ديوانه.

تصرفت أم الحسن بشهامة دون الرجوع لي فبحثت عن الأماكن التي أخبئ فيها النقود في المنزل فوجدت مبلغًا في سترة جيب الثوب فأخذته كاملا وأعطته لجارتها بلباقة على أمل أن تعيده لاحقا.

كنت نائما حينها ثم استيقظت، وهممت بالخروج من المنزل فارتديت ثوبي الأبيض وأدخلت يدي في جيبي لسحب المسواك فوجدت المسواك، ولم أجد النقود فبحثت عنها هنا وهناك سريعا فبعثرت كل ما هو جميل ومرتب في الغرفة كالمجنون. حتى إن لوحة جميلة تحبها

زوجتي أم الحسن كانت قد سقطت فانكسرت فأحست أم الحسن بحركة غير طبيعية هل قطة الحسن داخل غرفة النوم وهل عادت لتعثو فسادا وخرابا في منزلنا؟!

دخلت أم الحسن فشاهدت ما لا تحب مشاهدته وكنت غاضبا للغاية فيما تمالكت هي نفسها فقالت لي:

- ما بك تبدو كالمجنون؟، هل فقدت شيئا يا أبا الحسن؟

-فقلت: هل وجدت مبلغا من المال في جيبي؟

-أم الحسن: نعم وقد تصدقت به على نيتنا جميعا.

-أبو الحسن: ومن الذي أمرك بذلك؟ وإلى متى وأنت لا تتقنين أمور بيتك؟

-أم الحسن: أليس أنت من تحث الجميع على المنبر كل جمعة على التصدق؟

- أبو الحسن: وما علاقة هذا بذاك؟

أم الحسن بدا على ملامحها هيئة الدهشة فحدقت وقالت:

-سيتضاعف ذلك المبلغ أضعاف الأضعاف يوم القيامة.

أبو الحسن هو الآخر يبدو في هيئة غاضبة فقال منفعلا:

-يبدو أن الأمور بدأت تسوء معك ولن نصل إلى اتفاق أو حل مرض.

أبو الحسن يردف قائلا:

-وماذا عن ظروف زوجك الآن؟ كيف سيتدبر أمره؟!

أم الحسن تحاول تلخيص الموقف وإنهاء الحوار قبل أن يتطور ويحدث ما لم يتوقع:

-سوف يعوضك الله.

أبو الحسن: خرج من داره غاضبا وأغلق الباب الخارجي ليصدر صوتا مرعبا.

أم الحسن اكتفت بالبكاء.

اتصلت أم الحسن بأمها لتشكو لها تصرفات زوجها الغريبة وليس هناك مبررا لها.

فقالت لها:

-إن زوجك مغرور ومتوحش ولا عجب في ذلك فقد هربت منه زوجته الأولى.

ثم أوصتها الأم بأن تهتم به أكثر من ذلك.

فردت أم الحسن وقالت:

-إني أهتم به أكثر من اللازم، ولكن أظن الأمور عموما تسوء أكثر كلما أحاول التقرب منه ويبدو لي أنه سيئ العشرة.

وبعد أن عاد أبو الحسن كانت أم الحسن قد أعدت وجبة خفيفة لزوجها، وقد اعترضت باحتجاج بسيط:

-إني أحبك، فلا داعي لتوبيخي دائما، فأنا لا أستحق كل هذه القسوة.

أضاف أبو الحسن:

-لو أنك فقط استأذنت مني كنت لن أمانع في تقديم عمل الخير وسأكون سباقا كما عهدتني.

أم الحسن تتحدث في سرها:

-إنه بخيل.

ثم قدمت له الحساء، ووعدته بعدم تكرار ما لا يحبه دون الرجوع إليه.

تناول أبو الحسن الشاي ثم قعد يقرأ في عدة مراجع لإعداد خطبة غد الجمعة التي سيلقيها أمام أبناء القرية، وربما يصلي معهم عدد من كبار القرى المجاورة.

فرغ أبو الحسن من إعداد خطبة الجمعة والتي عنونها ب (سابع جار)، ومن ثم آوى إلى النوم.

وحين حان موعد صلاة الجمعة صعد المنبر وتحدث عن حقوق الجار والاهتمام به والوقوف معه في محنته ومشاركته أفراحه وأحزانه، وكان ميكروفون القرية يسمعه من يسكن حتى في آخرها.

وحين همّ بالانصراف من المسجد كان أحد رجال القرية قد قال له: جزاك اللّه خيرا يا أبا الحسن، خطبة رائعة، لعلك تعمل بما قلته.

فاحمر وجهه ثم تبسم دون قصد ثم انصرف.

فقال رجل آخر: إنه يتقن الأدوار كممثل مسرحي بارع وقد سمعت بأن جاره أبا فيصل سيشكوه غدا أو بعد غد إلى الشرطة أو المحكمة بأنه هدده بفأس ينوي قتله ويقال بأن هناك شهود عيان.

فقال رجل آخر: لا شأن لنا بالآخرين.

ومن ثم انصرف كل رجل إلى منزله.

وفي صبيحة يوم السبت استيقظت القرية على خبر قتل أبي فيصل وهو في طريقه لأداء صلاة الفجر على بعد مئة متر من المسجد، فضجت

القرية، وانتشر الخبر وطوقت الشرطة الأماكن، وأغلقت مخارج القرية في ساعات الصباح الأولى.

من غير شك تتجه التهم نحو إمام المسجد أبي الحسن، فهو في عراك وحوارات شديدة اللهجة مع جاره أبي فيصل، فكلما خمدت النار بينهما عادت أكثر من ذي قبل، ولا عاصم اليوم من النجاة فرجال البحث قد بدأوا مهمة عملهم في تتبع الأخبار ومراقبة منزل أبي الحسن.

وثمة أنباء تسربت إلى أبي الحسن من صديق مقرب له بأنه هو المتهم الرئيسي في قتل أبي فيصل، وأن أداة القتل هي فأسه الذي يحمله دائما إلى المزرعة.

حين وصل الخبر إلى أبي الحسن تنهد بقوة ثم قال: أعوذ بالله من إبليس فما أحمق الغضب!

وخرج سريعا من الباب الخلفي لمنزلهم ثم توارى عن الأنظار حين علم بأن الشرطة تراقب منزله وجميع طرقات القرية، فلجأ للاختباء عند صديق له، واندس في حظيرته بين جموع القطيع.

كيف يستطيع الآن أبو الحسن أن يبعد التهمة عنه، وزوجته المصونة وجوهرته المكنونة لن تقبل شهادتها عند القاضي، فهي من باتت

تسامره طوال الليل، ولم يبرح قط من المنزل حتى إنه أخبرها بتنفيذ وصية أبيه التي يكررها له دائما وأنه لن يمانع أن يزرع أبو فيصل القسم الذي يروق له حتى يسترزق منه هو وأطفاله الصغار.

قبل الظهر تمكن رجال الأمن من تحديد موقع أبي الحسن ثم طوقت مكانه بدقة وتم القبض عليه مجبرا، وفي أقل من 24 ساعة تم التحقيق معه لينفي تهمة القتل مؤكدا بأن علاقته مع جاره غير جيدة لكنها لم تصل إلى حد القتل.

وبات أبو الحسن في تلك الليلة خلف القضبان لأول مرة في حياته، فمن سوء حظه دفع ثمن كلمة، ورب كلمة قالت لصاحبها: دعني، فلا دلع ولا دلال بعد اليوم ولن يجد عناية ولا اهتماما، لن يشاهد أم الحسن تتبختر أمامه بوسامتها وحركاتها البطيئة واعتراضاتها اللطيفة.

هل سيعيش بعيدا عن ابنه وحشاشة جوفه الحسن؟ لقد بدأ يشعر بالجوع ويتململ من الليلة الأولى، هذه عاقبة كلمة لم يلق لها بالا.

أحيل أبو الحسن في صباح يوم الأحد إلى النيابة، وهناك لن ينجو بحديث أو تبرير عابر؛ ستكون الأسئلة دقيقة ولا مجال للمراوغة.

بدأ أبو الحسن يتحدث:

-يا حضرة المحقق، هذه القضية ليست قضيتي وهي تهمة جائرة لشخص مسكين لم يرتكب شيئا، ولم يفكر بقتل جاره، ولم يفعل قط ولن يفعل أبدا.

المحقق:

-لماذا قمت بقتله؟ لا تخف اعترف وسنقف معك لن يصيبك مكروه إنه قتل الخطأ أليس كذلك؟

أبو الحسن:

-يا حضرة المحقق، أقسم بالله العظيم إني لم أقتله ولم أنو حتى.

المحقق:

-كل الدلائل تشير بأنك المتهم فإن الفأس فأسك فكيف سنحكم عليك بالبراءة؟!

تمر الدقائق وهو يفكر بصمت لا مال ولا جاه ولا شهرة اليوم سوى نهاية مخزية فما العمل يا أبا الحسن؟

تدرجت أسئلة المحقق من سلاسة وبساطة إلى قوة وعنف.

فقال له المحقق:

-اللوائح والأنظمة لن تكون في صفك يا أبا الحسن.

رفض الاعتراف وبدأت حالة هستيرية يشعر بها.

فقال:

-إن الفأس فأسي ولكني لست القاتل هل تصدقون أم لا؟ فلماذا أعترف وأنا لست مذنبا؟!

طالت جلست التحقيق بين شد وجذب وسؤال وجواب ثم أقفلها المحقق باعتراف أبي الحسن وسط صوت مهدج وتوقف عن الكلام والعبرات تخنقه.

ثم رنت الساعة الثانية عشرة لأداء صلاة الجمعة، فنهض الشيخ أبو الحسن مرتاعا من مقعده وخرج من غرفته وهو يرتدي ملابسه الداخلية يصرخ فزعا من نومه: لم أقتل أحدا، ولا أريد أرضا.

فانزلق بكلتا قدميه في صالون المنزل نتيجة الغسيل والتنظيف ليتدحرج مسافة لا بأس بها.

فرك عينيه ثم صحا من حلمه وغيبوبته المؤقتة فقال: الحمد للّه أني سليم معافى خارج أسوار السجن، ولن أحمل بعد اليوم فأسا، ثم اغتسل وتوضأ وخرج لأداء الصلاة.

رسائل لم تصل ..

في شرفة أحد المنازل جلس شابان في سن متقاربة أحدهما يظهر بسن أكبر من الآخر وإن بدا شكله الخارجي صغيرا، والآخر أصغر نظرا لواقعه الذي يعيشه، لتسريحه شعره واهتمامه ببشرته وإن كان دون تلك المساحيق سيبدو كرجل هرم.

الشاب الأول للتو حصل على بعثة لدارسة الماجستير في أوروبا فيما يدرس الشاب الآخر على حسابه الخاص البكالوريوس بعد فشله في حصوله على الشهادة من إحدى الجامعات المحلية.

كان سلطان قد قدم لزيارة ثابت في شقته بعد سماع نبأ سفره لأوروبا، وقد سمع مؤخرا أيضا عقد زواجه من بنت خالته شريفة.

سلطان المهووس بأوروبا والسفر والرحلات وحضارتها وسحرها يتحدث عنها كجنة فهو يبدو أنه متأثر بها حتى الثمالة، ويتحدث باندفاع إلى ثابت عن الحرية، فيما يراقب ثابت المحافظ على دينه ومبادئه وقيمه تلك الكلمات البالغة والخارجة عن حماس واتقاد من فم سلطان.

ثابت الذي فضل عقد زواجه قبل السفر للدراسة لتحصين نفسه وإكمال نصف دينه، وبالتالي فضل تحصين نفسه عن الحرام وكتابة عقد زواجه من شريفة.

لكن ثابتا لا يستطيع إقامة حفل الزفاف قبل إنهاء دراسة الماجستير فهو حريص على آداب الإسلام التي يعكسها عبر تعاليمه في المنزل وفي عمله في شركة بيع المجوهرات.

سلطان يتحدث بسخرية قائلا:

-لماذا تتزوج من الديرة وأنت ستسافر إلى أوروبا بعد بضعة أيام؟! حاول أن تؤجل فكرة الزواج هذه، أو تنفصل للأبد عن شريفة فهي لا تليق بفتى وشاب مثلك وسيم وطموح، ويتقن عدة لغات.

يردف سلطان قائلا:

-لماذا تضع لنفسك القيود والعذاب؟!

ثم يواصل أيضا متزعما ساحة الحديث وسط إنصات ثابت والذي يبدو عليه علامات الخجل فهو لا يود مقاطعة ابن جيرانهم سلطان.

صدقني يا ثابت إنك تضع لنفسك نهاية السعادة فهي بداية النهاية وتقتل كل أحلامك، وأنت لم تبدأ بعد لكنك بدأت في الغرق وانتهيت من حيث بدأت!

علق ثابت على حديث سلطان:

-إن بنت الديرة مثقفة وطموح وأفكارها تتلاءم ليس مع فكري أنا بل مع عقيدتها الإسلامية.

ثم قاطعه سلطان وقال:

-أنت تجهل الثقافة الأوروبية العصرية ويحق لك ذلك كونك غافلا هنا ولم ترَ بعينك فتاة أوروبية شقراء على الطبيعة، وستشاهد سحرا حقيقيا وطبيعيا وسيسيل لعابك حينها وستندم على زواجك من شريفة.

بدأ سلطان يتعمق في الحديث ويحاول أن يسيطر على تعصبه بابتسامة ماكرة:

-ماذا عند شريفة حتى ترضى بها وترضى عليها؟

-شريفة يا سلطان بنت ملائكية وهي هبة من الله فلها مني كل الحب الرفيع فقد هيأها الله لي وسأحافظ عليها ولن أفرط فيها مهما كلفني الثمن ولا أسمح لك بالتقليل من شأنها.

شعر سلطان بغضب ثابت ثم بدأ يلطف الجو وقال:

-لا تقل مثل هذا الكلام ولا تحكم عليها قبل أن تعاشرها برهة من الزمن.

ثم رد ثابت بابتسامة وقال:

-عجيب أمرك يا صديقي لقد خدعتك أوروبا بمظاهرها! إن البنات في أوروبا كحلوى مكشوفة ألا تتفق معي؟

سلطان:

-لم تخدعني أوروبا إنها صادقة في حريتها فهم يفعلون ما يريدون دون حسيب ولا رقيب.

ثابت:

-الالتزام ليس محصورا في النساء فقط، حتى الرجال سيحاسبون حين يقصرون، فالحلال حلال على الرجل والمرأة، والحرام حرام على الرجل والمرأة في الإسلام.

وأردف ثابت:

-والسعادة لن تحصل إلا بزوجة ناجحة، والحرية لا تعني أن تخلع حجابها، أو لا تقود السيارة أو تقبع في عقر دارها ولا تعمل أبدا بل إذا قرأت في التاريخ والسيرة فستجد أن هناك نساء عملن في مداواة الجرحى، والدين كفل للمرأة حقها وصانها، وحقوقها الشرعية لا تعني إطلاقا أن تتجرد وتصبح فتاة لعوبا تقضي وقتها خارج المنزل وتسهر مع هذا وذاك فالفتاة في الإسلام ليس مجرد أداة تحرك بل هي الأم والأخت والزوجة والبنت وسندافع عن عرضها ونصونها.

وبدأ الارتباك على سلطان ثم استأذن للخروج فقد أطال الجلسة وسوف يذهب إلى حفلة شبابية هذا المساء.

استقل سيارته الفارهة على أنغام تلك الموسيقى الأوروبية ولا يكاد يعرف كلمة مترجمة منها سوى التخبط معها كمن مسه الشيطان.

سلطان ينظر لنفسه في مرآة السيارة بعين محتقرة لكن يود أن ينشر السوء والانحطاط كما تأثر به، فلا يريد أن يكون ثابت ذا مكانة وسلطة وسمعة بين أهل الحي.

جلس ثابت يحدث نفسه بعد انصراف سلطان:

-لقد لوثت أوروبا فكر ابن جيراننا، ويبدو أن أفكاره المنحرفة ستؤثر حتما على من يسامره أو يجلس معه، ولن ينجو أحد من أفكاره المسمومة هداه الله وإيانا إلى طريق الصواب، ولقد كان أبوه رحمه الله من خيرة رجال القرية، رجل مستقيم وكريم، ذو أخلاق عالية وتواضع جم.

وحين هم ثابت بالنوم بدأ يفكر فيما دار بينه وبين صديقه القديم سلطان فبدأ يسأل نفسه وهو في حيرة من أمره:

-هل هذه هي الشهادة التي ذهب لأجلها؟! وهل ينفق أموال أبيه التي ورثها في الفساد هناك ويغامر بها في لعب القمار ويسكر بها؟! ولماذا يبذر هذه الأموال دون أن يراعي ولو مرة بأن أباه لم يجمعها في يوم وليلة بل إنه ضحى بوقته وصحته حتى يجمع هذه الثروة؟! كيف ستنفع الذكرى مع سلطان وهو مقتنع بما يفعل؟!

إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، فهل يدرك سلطان هذا الكلام أم أنه غاب عنه وسحرته عادات الغرب؟ أين الغاية التي ذهب لأجلها؟

ولم ينقطع تواصل سلطان مع ثابت عبر الهاتف فهو يريد أن ينفث فيه السم الذي تجرعه من أوروبا وبات يعيش على تلك المهدئات من رقص وطرب وترف باذخ ومظاهر أخرى كاذبة، يريد أن يجر ثابتا بكل خبث

إلى مستنقعه الذي يعيشه ولكن قوة إيمان ثابت وثباته على الدين المستقيم ستتصدى لكل سهم مسرطن بالمرصاد.

وذات يوم أدى ثابت صلاة الفجر في جماعة وبحكم علاقته القوية والمتينة مع إمام المسجد انتظر حتى انصرف جميع المصلين فشعر به الإمام بأنه يريد أن يتحدث في موضوع ما أو يسأل عن معلومة شرعية كعادته حين تصعب عليه المسائل الدينية فهو يستعين بإمام المسجد الذي يعمل قاضيا في المحكمة.

فقال له الإمام:

-ما بك يا ثابت؟ هذا اليوم لم تنصرف مع الناس، هل من حاجة لديك أستطيع قضاءها لك أو الإجابة عنها؟

فقال ثابت له:

-كلا لا لا ليس هناك شيء يا شيخ سوى موضوع بسيط لا ألقي له بالا ولكنه بدأ يؤرقني ولن يزحزح أفكاري بإذن الله.

-وما هو يا بني؟

-يا شيخ إن ابن جيراننا سافر إلى أوروبا وعاد وليته لم يعد يبدو أنه يعاني من اضطراب ذهني فلا أدري هل هو مريض أم أنه تأثر فكريا بما لدى هذه الدول من ثقافة لا تناسب الثقافة الإسلامية.

إمام المسجد:

-ادخل يا ثابت في صلب الموضوع ولا تتحرج فربما كتب اللّه له الهداية على يدك فسبحان مغير الأحوال.

ثابت:

-يا شيخ إنه يؤمن بأن على المرأة أن تتصرف بحرية تامة وكيفما شاءت بمحرم أو بدونه وعليها أن تسابق الموضة والعولمة في اللبس ولا مانع من إقامة حفلات تحت إطار الحرية فهي في نظره حق للذكر والأنثى، ولكن ليست هنا المشكلة.

إمام المسجد:

-إذا كان ما قلته في نظرك لا يعدو مشكلة فما هي المشكلة إذن؟

ثابت:

-إنه يصف المجتمع هنا بالتخلف والرجعية وأنه يفرض قوانين شخصية على المرأة بينما يصف الرجل بأنه سيد نفسه ويحق له ارتكاب الخطيئة، ولماذا لا تشاركه الأنثى هي الأخرى.

إمام المسجد:

-لقد خلق اللّه الرجل والمرأة من طين واحد وهما متساويان في الحقوق، وهناك فرق في التكوين فالمرأة كرمها الإسلام وكفل لها حقوقها في الميراث مثلا وفي التعليم وفي العمل وفي التربية ونحن مستهدفون في عقيدتنا، والرجل كرمه اللّه بخصال وصفات ووضع له تكوينا خاصا والإسلام يحترم الجميع ولم يميز جنسا عن الآخر.

وأردف:

-إن صديقك قد شرب الفكر الغربي ويسعى أن يطبقه هنا، فحاول قدر استطاعتك أن تتناقش معه بهدوء مدعما حديثك بحجج من القرآن فهو صالح لكل زمان ومكان ولا بد من دحض مثل تلك الأفكار ولا تغضب من صديقك ولا تحكم عليه سريعا قبل أن تدعوه إلى طاولة الحوار مرة ومرتين وثلاثا، فإن لم يقتنع فاحذر منه وحذر منه ونسأل اللّه

الهداية والاستقامة لصديقك ولنا جميعا فليس هنالك إنسان معصوم من الخطأ وصديقك قد يكون قابلا للتغيير لكنه لم يجد من يسمع أو ينصت فدون شك سيبصر ولو بعد حين ولكن الأهم قبل فوات الآوان.

ثابت:

-لقد حاولت يا شيخ بطرق شتى ولكنه ما زال مصرا فهل تقبل دعوتي يا شيخ؟ وسوف أدعوه لتناول طعام العشاء في إجازة نهاية الأسبوع وسيكون حضورك خيرا بإذن اللّه فأنت أكثر اطّلاعا وتخصصا مني فربما تتغير تلك الأفكار الهدامة التي أخشى أن تحرقه وتحرق من معه.

إمام المسجد:

-سنكون على تواصل في المسجد قبل الموعد بيوم فربما أكون مرتبطا بأعمال أخرى، ولكن مبدئيا بإذن اللّه سألبي دعوتك فهي عزيزة على قلبي، وقد اشتقت لوالدك أيضا الرجل الطيب أبلغه سلامي يا ثابت.

تلقى ثابت مكالمة هاتفية من سلطان الذي يود أن يخرج معه في نزهة بحرية أو أي مكان آخر لشرب الشاي فبدأ ثابت بالاعتذار ثم ألح وألح سلطان حتى قبل ثابت دعوته عقب أن يغلق ثابت محله مساء الخميس.

وكان سلطان قبل أن يغلق ثابت متجره قد حضر في آخر ساعة من عمل ثابت، وهناك شاهد فتيات يعملن بجواره منهن المحجبة والمنقبة وأخريات تكاد ملابسهن لا تسترهن.

جلس سلطان يراقب الموقف والزبائن وكل منهمك في عمله فقال سلطان:

-لماذا لا تجعل زوجتك تعمل معك وتساعدك؟ هل تمانع؟ ففي أوروبا يعمل الغالبية من الرجال والنساء وكل يعمل بحريته ولكل شخص أصدقاء مقربون ويقضون معهم أوقاتا جميلة في الملاهي الليلية، أو في الحدائق وليس ثمة مشكلة بين الطرفين، فالأغلب يمارس ما يحلو له دون قيود.

ثابت:

-صدقني يا سلطان إني أعيش حياة نقية وفي نعيم وفي كل يوم أتذوق كؤوسا من الهنا والحب وليس تلك الكؤوس التي تحكي عنها فما بالي وتلك الأفكار التي تطرحها كسهم جارح وكمن يدس السم في العسل؟!

سلطان:

-سوف أسحب كلامي إذا جرحتك فأنا صديقك الأول، ولا أريد لك ولزوجتك سوى الخير فهي لا تستحقك؛ فأنت ذو مكانة وهيبة ورجل طموح وعملي وتجيد الكثير من اللغات، فلماذا ترتبط بفتاة من هنا ولا تفكر في حسناوات أوروبا لن تخسر شيئا ستدرس هنالك وستجرب ذات يوم.

ثابت:

-من اللائق ألا أخون زوجتي فأنا راضٍ بما كتبه الله لي وسفري سيكون لأجل الدراسة، وليس لأجل التنزه وقضاء الأوقات فيما لا يعود على بالنفع والفائدة.

وأردف ثابت قائلا:

-أنت يا سلطان لماذا لا تفكر بالزواج فلا أعتقد أنه ينقصك شيء سواء كان منزلا أو سيارة أو مالا وحتى وسامة ما شاء الله عليك.

أحس سلطان بسهم سدد نحو قلبه فقال في سره:

-كيف أتزوج وأنت قد ظفرت بمن كنت أحبها وأتمناها أمًّا لأولادي ولن أجد امراة ذات ثقة ودين وجمال.

ثم ابتسم وقال:

-لا أفكر حاليا ولست عجلا مثلك.

ثم حاول سلطان تغيير الموضوع فقال ووجهه يعلوه حمرة:

-متى ستسافر إذن؟

فقال ثابت:

-مطلع الأسبوع القادم ستكون طائرتي في الساعة التاسعة صباحا.

وقبل موعد السفر بيومين اتصل سلطان على ثابت في محالة لإغوائه وثنيه عن فكرة التمسك بالزواج من شريفة لعل كمينه الأخير يصيب.

ثم قال ثابت:

-مرحبا بك عندي في المنزل يا سلطان وبالمناسبة سأعرفك على صديقي القاضي وإمام المسجد وستكون فرصة لنا أن نجلس جميعا ونسمر قبل السفر فهل تشرفنا بالحضور؟

سلطان:

-ربما أكون مشغولا ومرتبطا بموعد آخر مع شلة من الأصدقاء للسهر ولعب الورق.

ثابت صمت وفي داخله يقول:

-يبدو أن صديقي سلطانا يكذب علي، ولكنه لا يريد أن يلتقي بالشيخ.

سلطان من وراء الهاتف يعتلج في صدره انفعالات ويشعر بانهيار شديد لعدم تمكنه من لقاء ثابت قبل سفره لإغوائه. ومن ثم ألقى سلطان بنفسه على السرير وهو يفكر هذه المرة في مفاهيمه الخاطئة، وكيف سيكرس أفكاره الضالة والموبوءة ويغرسها في ذهن ثابت.

في الصباح الباكر وقبل إقلاع الرحلة اتصل سلطان بثابت وفي داخله كمية من العدائية والانتقام فقال بصوت رقيق صبغته نغمة حنون:

-سوف أفتقد صديقا صدوقا، ولكن يا صديقي أليس حراما عليك أن تترك شريفة وتسافر للدارسة؟! فلماذا لا تدعها في حالها وأنت ستجد من يهتم بك في تلك الديار الإفرنجية؟!

ثابت:

-لن أسكب آيات الغرام لغير شريفة فهي بنت حارتنا وقبل ذلك فهي قريبة لك وتستحق مني كل الاهتمام والاحترام.

وبعد أن أغلق ثابت خط الهاتف جاءت شريفة تزخر إلى ثابت بحزن لقرب ساعات المغادرة.

وكانت قد سمعت شريفة حديث ثابت ثم اقتربت منه وقالت له:

-من الذي كان معك على الخط فقال لها ثابت:

- صديق قديم.

شريفة:

-ومن هذا الصديق؟ هل أعرفه؟

ثابت:

-نعم فهو ابن عمتك سلطان.

تغير لون وجه شريفة لكنها تمالكت نفسها وحاولت أن تدفع بوجهها للناحية الثانية.

-وماذا يريد منك يا ثابت؟

-إنه يودعني فقط.

لم تشعر شريفة بالراحة، وظلت قلقة، وكتمت ما بقلبها، ولا تريد أن تعكر صفو زوجها الذي هو بحاجة لمزيد من الدعوات في هذه الساعات.

ثم قال ثابت لشريفة:

-يا صاحبة الروح الطاهرة والقلب النقي سأفتقد حنانك ورحمتك ولكني سأشتاق لك أكثر وأكثر.

ثم طبع ثابت قبلة على رأس شريفة وأدار ظهره وسار والعبرة تكاد تخنقه.

تمالكت شريفة نفسها ثم ذهبت تجري إلى غرفة النوم لتنثر ذلك العشق بكاء وبكاء فما أصعب وأقسى لحظات الوداع.

وبعد مضي شهر من السفر أرسل ثابت رسالته الأولى لزوجته وقال:

مر الشهر الأول وأنا في حلم، صورتك لا تفارق مخيلتي، وحين أنظر لتلك الذكرى في شنطتي الصغيرة يزهر قلبي شوقا، أتقلب في فراشي، أنسج حوارات غرامية.

لست وحدي من الآن أنا والحب وصورتك لا نفترق في المنزل، وفي قاعات الدراسة، وسأحصن نفسي، وسأبقى على عهدي معك وسأمارس طقوس الوفاء، ولن تنقطع حبال الحب والوصال بيننا.

سنبقى على تواصل، ولن تنقطع بيننا الرسائل أبدا فحين تصلك رسالتي ردي على عجل.

وصلت رسالة ثابت عبر البريد فماذا جرى إذن:

خيم الحزن على أجواء شريفة وأي حزن إنه الشوق والحب والصدق والخوف على الغائب الحاضر.

وكتبت شريفة رسالة إلى ثابت تشرح فيها حجم شوقها وذيلتها:

-ثابت، حين تقرأ رسالتي أنتظر منك الرد فأنا أقف حافية القدمين على الجمر أتقد شوقا.

وضعت شريفة الرسالة في بطاقة جميلة وهي متفائلة ومتلهفة، وطبعت عليها قبلة حانية من شفتيها الورديتين.

اتجهت شريفة إلى أقرب مكتب بريد، ومن ثم قامت بإرسالها.

وانتظرت شريفة ولم يصل الرد بعد شهر فقالت لها الأم:

-ابعثي رسالة أخرى، يبدو أنه مشغول في دراسته ولا يلام يا بنتي ولم يجد فرصة مناسبة للرد عليك.

فبعثت شريفة رسالة أخرى بعد مشورة مع والدتها:

-أعيش قلق الانتظار، وأتردد على الهاتف، ومكاتب البريد، وأنتظر منك إشعار حياة شهادة وجود للتشبث بالأمل.

مفارقات ورياح لا أدري إلى أين تقودني، شجون لا يتوقف ورغبة جامحة لاحتضانك.

دمي كالمطر وترانيم الوصل غائبة، تمر اللحظات بطيئة فأنا في شغف إليك، ويبقى الحب والشوق والعشق مستيقظين بداخلي.

حبيبي ثابت أرجوك هذه المرة لا تتجاهل رسائلي سأقطع الأميال بحثا عنك، وسأجازف وربما سأعتب عليك كثيرا إن لم تبادلني الاهتمام.

لم يصل الرد أيضا وبدأ الشك والريب يسكن قلب شريفة:

يا ترى هل فتن ثابت ببنات الغرب؟ أم أصابه أمر ما؟ ولماذا لم يرد على الرسالتين السابقتين؟

شريفة:

-يا أماه هل من حل لمشكلتي؟

الأم:

-الصبر يا ابنتي، سوف نذهب للاستعانة بابن جيراننا سلطان فهو كان يدرس في المدينة التي يسكن ويدرس بها ثابت، ولن يقصر معنا وسيتواصل ربما مع أصدقاء له وسأبذل قصارى جهدي مهما كلف الأمر ولن أخذلك.

هدأت الأم روعة بنتها وصنعت لها كوبا من عصير الليمون، وخففت عنها الألم والتوتر.

وفي وقت متأخر من الليل اتصل سلطان على منزل شريفة فكانت شريفة أول من يلتقط سماعة الهاتف فشرحت الوضع كاملا وعدم تجاوب ثابت، فهل أصابه شيء؟

وعد سلطان بإيجاد حل سريع، ثم بدأ في المماطلة لاحقا بحجة انشغاله وتارة بأنه مريض، وأخرى لسفره للمدن القريبة لأعمال التجارة.

فمضى شهر وبدأت شريفة تشعر بالتوتر، والملل، والقلق، وعدم جدية سلطان في مساعدتهم.

وعقب شهر اتصل سلطان وبدأ يلمح إلى مقابلة شريفة خارج المنزل لإيضاح أمور هامة حصل عليها من أصدقاء مقربين هناك، ولكن شريفة بدأت هي الأخرى تتجاهله.

وعقب ذلك بيومين اتصل وأقسم بأن لديه أشياء هامة ومعلومات عن ثابت لا يمكن قولها بالهاتف إطلاقا.

ونجح ثابت في جر شريفة إلى حديقة قريبة، حضرت وكانت في كامل احتشامها ولم تمنحه فرصة الشد والجذب في الحديث، ولم يكن سلطان سوى مندهش من هيبتها فأعطاها سلطان ظرفا مغلفا ثم انصرفت.

وكان الظرف يحتوي على مجموعة من الصور تثبت ارتكاب ثابت لمخالفات وتجاوزات.

حيث أظهرت الصورة الأولى أنه على علاقة ببنت غربية تعمل في ملهى ليلي، وصورة أخرى وهو يقضي أوقاته في الشراب والسهر مع الفتيات.

وصورة أخرى وهو محاط بمجموعة من الفتيات.

دخلت شريفة غرفتها وبكت كثيرا حتى إنها مرضت قرابة أسبوع، ولم تبرح من غرفتها على الإطلاق.

شريفة على علاقة رائعة بأمها فهي ليست مجرد أم فقط فهي مستودع أسرارها، ولكن لو تسرب الخبر سيصل إلى والدها، وسيقوم بإجراءات الطلاق الغيابي، فبدأت تعيش واقعا مظلما لا تدري من الذي سيقف معها في ظروفها.

كانت أمها قد لاحظت عليها منذ وقت مبكر تغيرها فلم تعد شريفة السابقة فيما كان الأب يمارس عمله اليومي، ولا يعلم عن الوضع شيئا.

وذات يوم اتصل سلطان على منزل شريفة، فكانت هي أول من يلتقط الهاتف فقال لها:

-أود أن ألتقي بك غدا في الساعة التاسعة مساء أو أي وقت تريدين فلدي ما أقوله لك.

رفضت شريفة دعوة سلطان أيا كان موقعها ووقتها وأصرت إن كان لديه خبرٌ عن ثابت فليقله عبر الهاتف.

فشلت محاولات سلطان ثم بدأ خبثه ونصائحه كي ينفر شريفة من ثابت وبدأ يشوه سمعته.

لم تمنحه شريفة مجالا وفرصة كافية حتى أغلقت الهاتف في وجهه وراحت تبكي وتبكي.

كان سلطان يقف حاجزا وسدا منيعا بين رسائل ثابت وزوجته شريفة؛ فهو بطريقةٍ ما كان يحصل على تلك الرسائل من الموظف ساعي البريد الذي كان يقدم له الرشوة والمبالغ النقدية.

اقترب موعد عودة ثابت بعد أن تخرج من الجامعة ليحصل على الماجستير وقبول الدكتوراه ولكنه هذه المرة كان مصرا على سفر شريفة معه بعد أن شاهد بعض العوائل العربية تقطن بأسرها هناك.

ليس هناك من يعلم بعودته سوى سلطان والذي يخشى أن يكشف أمره فما كان منه إلا أن ذهب إلى مدينة مجاورة للاختباء فيها.

وصل ثابت المطار فلم يجد من يستقبله أو يعلم بنبأ قدومه وسط دهشة منه فلا يدري إلى أين كانت تذهب رسائله وشريفة قد ردت عليه في الرسالة الأخيرة بأن والدها سيكون في استقباله.

ولكنه أحسن النية فبدا يلتمس العذر بأن الوقت متأخر للغاية، وبدأ يقود السيارة بسرعة جنونية حين خرج من المطار برغم من أن الوقت يبدو متأخرا جدا، فالساعة تشير إلى الثانية ليلا.

طرق ثابت الباب فكان أول من فتح الباب هي شريفة، والتي قامت بطرده ولم تمكنه من الدخول وسط تعجب من ثابت، لماذا هذه المعاملة القاسية والجافة فهو لم يعتد عليها؟!

سمعت الأم الأصوات تعلو وشريفة خارجة عن طورها وتتفوه بكلمات لأول مرة تصدر من امرأة عاقلة جن جنونها.

استيقظت الأم فاقترب وقت صلاة الفجر، واستيقظ الأب أيضا على الأصوات العالية عند باب المنزل.

فدخل ثابت فيما رفضت شريفة الجلوس معه.

بدأت معالم الأمور تتضح حيث قالت له أم شريفة:

-لماذا لم ترسل لنا سوى رسالتين ولم ترد على رسائل شريفة فهي غاضبة جدا، وقد استعنا بصديقك سلطان والذي كشفك على حقيقتك.

ثابت:

-أي حقيقة؟! وما هذه الاتهامات يا عمة؟!

حكت أم شريفة القصة كاملة، وشرحت الحكاية من الألف إلى الياء حتى أحس ثابت بحسرة من هول المواقف والقصة الغريبة والتي لا تكاد تحدث إلا عبر قصص الخيال والمسلسلات.

فقال ثابت:

-لقد خطط سلطان هداه الله جيدا للتفرقة بيني وبين زوجتي، وأهلها إنه شخص مريض، وسينال عقابه ولن أسامحه.

جميع الصور التي بين يديكم هي صور غير حقيقية وهي مجرد فوتوشوب عملت على جهاز الحاسوب هدفها نشر القطيعة وخراب البيوت، ولن ينجو سلطان بفعلته الدنيئة هذه.

بدأت الأم تقتنع فيما كانت شريفة خلف الباب تسمع كل التفاصيل فعادت للصالون واعتذرت فيما كان وجهها شديد الحمرة فاختلط البكاء والفرح.

وأي حسرة كانت، وأي أمل منتظر صدمة لم تكن في الحسبان، مزيد من الأسى والضجر تحول لفرح وسعادة.

كان سلطان عائدا من المدينة بعدما هدأت الأمور، ولم يشاهد تواصلا من قبل ثابت، وما إن اقترب الدخول للحي الذي يسكنه سابقا حتى اعترضته سيارة كبيرة نتج عن ذلك حادث مروري أصيب من خلاله بكسور جسيمة فكانت عودته خائبة جلبت له الهم والتعاسة ككابوس مزعج وكحلم تكسر كالأشلاء.

من فات عاد ..

عدت بذاكرتي إلى الوراء خطوة خلف خطوة فشعرت بهزة عنيفة في ذاكرتي، استمرت عدة ثوانٍ ثم ترك دويها أثرا مستمرا يكاد لا ينقضي، ولست هذه المرة في طريقي إلى لملمة الأحزان وشظايا الماضي الأليمة.

قررت هذه المرة أن أتنفس شيئا من عبق الماضي الجميل، أتفقد هذا وذاك حدود أرضنا الجغرافية مزارع جدي آثار أبي، وأنا في طريقي شعرت بحزن يعصرني وقلق يجثو على صدري.

تندر زيارتي لتلك الأرض المباركة فمنذ فترة طويلة استقريت في المدينة، ولم أعد أتردد على قريتنا، وإن ذهبت كنت أكتفي بإلقاء نظرة عاجلة، ولا أتريث في البقاء، فأنا كعادتي أثق في الجميع كما كان يفعل جدي، ولا أكترث بما يدور حولي من غدر أولئك المساكين.

أحداث فرضت، وحكايات نسجت خيوطها في غير محلها، بدأ قلبي يرجف وروحي تضطرب فالحدود تبدو متغيرة، فعضضت شفتي.

ودخلت إلى القرية في لحظات الصباح الأولى، فصعد إلى رأسي مشهد صباحي بدأ يحاصر ذاكرتي، ويهاجمني بصمت فمن الذي أوصل ذلك المسكين إلى أن يجرؤ على من مد له يد العون والمساعدة له ذات يوم.

الأشياء الجميلة حين يهجرها أصحابها أو لا يتم إحياؤها يلبسها الخطر، ويحيط بها السُّرّاق وضعاف النفوس والطماعين.

معالم الأرض واضحة وحدودها لم تغيرها عوامل الزمن يعرفها كبار رجالات القرية إلا نفوس الطماعين.

هناك شجرة كبيرة وهناك حجرة ثقيلة والبيت القديم يئن من وطأة الذكريات ويشد ذلك الموقع كل من يمر من هناك.

وتنمو على جانبي الأرض رقع من الأعشاب البرية، وبعض الشجيرات الرعوية ونزرع في أوساطها القمح، ولن تسمع في ذلك الصباح سوى هشيشة الرعاة يطردون وراء بهائمهم تارة يمنة وأخرى يسرة.

المدخل إلى قرية جدي ضيق وقبالته أحجار كبيرة وأشجار كثيفة لا تحجب النظر ولا تعرقل حركة السير.

وعلى ضفاف الطريق من اليمين والشمال منازل حجرية وجدران حجرية أيضا تبدو كترسيم للحدود ينذر المتطفلين والعابثين من الحوم حولها.

حين يسقط المطر يعود أبناء القرية إلى أزمة العبور ذهابا وإيابا، ولا تعبر سوى سيارات الدفع الرباعي.

ارتقيت على المطلع بعد أن عبرت الطريق بصعوبة بالغة وبسيارة صغيرة لم يكن موسم الأمطار قد حان فالطريق ممهد، ورميت نظرات طويلة.

كان جدي يحدثني في الماضي عن قريتنا وتاريخها فهي نموذج للتعاون والأخوة لا يترك فيها مريض دون زيارة، ولا محتاج دون قضاء حاجته ولا معسر إلا والْتَأم الجيران حوله.

جميع أبناء القرية كانوا كأعضاء الجسد على يد واحدة وقلب واحد لا تفرقهم الظروف فرحهم واحد ومصيبتهم واحدة.

لم يبق من الصورة التي رسمها جدي سوى تلك الألوان الباهتة فالضمائر قد ماتت والنور قد انطفأ فالمشاكل بين أروقة المحاكم يعانق ورقها سقف الغرف وقد تحول التكاتف إلى تنافر.

ظل الناس في القرية واستبد بينهم الجور، وطغت عليهم الأنانية وحب الذات، وعميت عيونهم عن الحق.

سألت وسألت عن أفضل رجال القرية حكمة وحكما ورجاحة وهيبة ووقارا وأمانة وصدقا فقالوا: ستجد فلان ابن فلان ما زال من عبق الطيبين يفوح خيرا ولا يتحدث إلا بالحق.

وَطِئت قدماي أرض جدي ووجدت ما لم يكن في الحسبان فالنفوس قد تغيرت، ولم يعد بينهم صلة ومودة، فالقوي منهم يأكل الضعيف، والحاضر ينهش في الغائب، ولا لغة تعلو سوى التهديد.

في المرة الأولى كنت لا أنوي أن أقوم بتصعيد الأمر إلى الجهات الحكومية، ولا أريد أن ألحق الضرر بجار جدي، وعقدت العزم على هدم ما تجاوز ببنائه على أرض جدي، وسأكتفي بإنذاره دون زوبعة، وسأحذره ألا يقترب حتى لا يطمس تاريخ جدي المناضل.

لم يستجب ذلك الأحمق، وبدأت لهجته الغريبة تنمو وتتراكم بعبارات التحدي واليمين الكاذبة، وأومأ بيديه إلى حدوده الكاذبة متباهيا بإرث جده الذي لم تطأ قدماه تلك الأرض، ولم يولد عليها.

كل من مر علينا يوقن بأن هذا الرجل كتب تاريخا ناصعا وسطر فيه الناجحات فهو يثرثر، ولا يتحدث بحكمة، فتركته حتى فرغ من حديثه وبطولاته الكاذبة.

يدرك أني أصغر منه سنا ثلاثة أضعاف بدأ يحدق بي فانسحبت بسلام من الموقع دون كلمة حين شعرت بأن الجدل مع الطماعين لن يجني الثمار وسوف يزيدني توترا.

دخل ذلك الأحمق إلى منزله وهو ينسج القصص ويثرثر ويصرخ بصوت عال: الأرض أرضي، ومن فات مات.

غبت لبضع دقائق فأحضرت حكيم القرية وأحد مؤرخيها فبدأ الرجل الأحمق بالترويض ثم أخذ كبير القرية ينضح بالماء في وجهه فلقنه كلمات قاسية.

فقال كبير القرية العم راضي:

-أرى في عينيك يا يحيى نية سوداء وحقدا دفينا هل عرفت أباك حتى تأكل حقوق الناس؟! نحن عرفنا أمك التي وفدت إلينا منذ زمن بعيد تحملك أنت وأختك ليلى فتوفيت رحمها الله وكانت سيدة فاضلة، وعملت في أغلب مزارع القرية.

وقد استأذنتْ من المرحوم موسى وبنتْ لها عشة صغيرة هي تلك العشة التي حولتها أنت الآن إلى بيوت من طوابق.

كيف سمحت لك نفسك أن تتجاوز على حقوق جيرانك الذين قدموا لأمك الخير والمساعدة ولم يقصروا بحقها ذات يوم؟!

ظللت صامتا أراقب ذلك الحوار فلن ينتصر سوى الحق، ولكني أدرك بأن هذه الكلمات لن تردع مثل ذلك الأحمق، فربما يعاود التجاوز مرة ومرات.

سألني حكيم القرية:

-ماذا يرضيك الآن؟

فقلت له:

-أنت الكبير وأنت الذي لا بد أن ينطق اليوم بما يرضينا.

نظر للأحمق مرة أخرى فقال له:

-أحسن إلى جيرانك سيحسنون إليك يوما فلا تحقد ولا تردم واجعل قلبك صافيا وأصفى من العسل وأنقى من الماء.

وها أنا أريد منك الآن عهدا وجميعكم تعاهدوني بأن تتعاملا كشقيقين.

تشاورت أعيننا وقلنا بعد تردد وبصوت لا يدعو إلى التفاؤل: سمعا وطاعة.

فرغت من ذلك الأحمق حتى استجد جار آخر فقلت في سري:

-مات جدي وأصبح ورثته لا يحملون اسمه، أشخاص لا يستحقون ولا يستحون تطعمهم فيكبرون، وحين اشتدت سواعدهم صوبوا سهامهم إلى خيرات جدي.

ثم انصرفت إلى ديار جدي وأنا أعزف شجنا غافيا فوق المقل لامس فيه ذلك الوميض الذي لا ينطفئ وتلك اللحظات التي لا تصدأ.

وقفت على تلك الأرض رأيت ملامح باهتة ومتقصفة وواهنة، وانتظرت حتى يكتمل المشهد فبدأت تلك الخطوط تستقيم وتتشكل، وبدأت أرى ملامح ليست غريبة حفظتها كما هو اسمي ثم مضيت ذاهلا من حنين الطفولة.

شدَدْت القافلة إلى الجعدية ..

أشعلت الفانوس، وشرعت النافذة، وعبير من الهواء البارد يتسرب إلى جسدي بهدوء هامس.

ثم شدَدْت القافلة إلى الجعدية.

على ضفاف وادي الخمس السدوم تقع قرية الجعدية التي تحيط بها الجبال من الجهة الشمالية حيث الأمطار والسيول والماء العذب الزلال الذي يروي المزارع الطيبة في كل مكان، والأنام في رغد من العيش والوئام.

الطريق إلى الجعدية لا يخلو من السعادة والنقاء فهي ملاذ آمن والحياة في عمقها كيوم ميلاد.

بدأت الجعدية ذلك اليوم كحسناء قد خرجت في يوم زينتها ترتدي الثياب الملونة وتتبسم كطفل بريء.

اقتربت من ضفاف واديها، وقد تألق الجو وتأنق، وجسر العبور إلى قرية المهتش ينوء بالعابرين وقد اصطفوا يتطلعون يمنة ويسرة.

ألقيت نظرة تشفي ذلك الغياب وهتفت في أعماقي وقلبي يخفق والصمت يهيمن على ملامحي.

بدأت السحب تتعانق، وتلبدت السماء بها، وتراصت والرعد يترنم، والبرق يومض، وأكناف الدجى تتجرد من رداء الليل المظلم.

بدأت أترقب سقوط المطر، وبدأ ماء المطر ينهمر بين خفة وغزارة، لتطرق حبات المطر زجاج نافذتي، وبدأت تتراقص تلك الحبات، وتزهو على سطوح المنازل.

كان جدي ومن هم في عمره قد فرشوا الأرض بحبات القمح وغرسوا بأناملهم تلك البقاع وحرثوا كل المساحات الخالية و(الباقي على الله) هكذا يرددون دائما.

تهافت جدي المناضل وبدأ بالخروج من المنزل يحمل الفأس ومشط الأرض متجها إلى أرضه الزراعية ليسقيها، فالمطر الكنز الثمين له ولأصدقائه الفلاحين.

أشرق الصبح أخيرا بعد ليلة ما طرق النوم فيها عيني، وكيف لها أن تنام وهي بين نارين عين قاسية وشديدة وعين يشدها ذلك البيت الصغير؟!

ألقت الشمس خيوطها الذهبية على المزارع الخضراء، وبدأت حينها أغفو على حلم جميل، وأنسى الألم الذي بأحشائي وقررت أن أمضي قدما راسما البسمة في وجه كل من أجده في طريقي ابتسامة صادقة نابعة من الأعماق، وليست من الشفاه فقط.

كم أتمنى أن يختفي ذلك الألم المتبقي، وأن تذهب تلك الكلمات من قاموس حياتي التي ترسخت منذ الصبا، والتي كانت تفرض قسرا فتلك اليد الحانية مكسورة، ولكن ذلك القلب لم يحطم بل ظل ذا عزيمة وإصرار.

أعوام مضت لا أحد يعلم عنها شيئا رحلوا ولم يبقَ سوى الذكريات، وليتهم لم يرحلوا.

لا أدري ماذا أكتب فذلك الإنسان الذي كان يتمنى الموت أصبح يرغب في الحياة.

فجأة تغيرت الأحوال، وتغيرت بوصلة الاتجاه فأصبحت لا أكترث بالحياة مهما تجنَّت وبالمشاكل مهما تفاقمت، ولم يعد السوء قريبا مني.

جهزت نفسي وخرجت.

أخذت ذاكرتي بضع دقائق تقلب في شريط السنوات الماضية وعلى جنبات الطريق أستمتع بمناظر الطريق الخلابة.

ظللت أسير وأسير وأنا مشغول الفكر كيف سيكون حالي فوجدت نفسي في وسط ذكريات متزاحمة حتى طرق مسامعي صوت كالصفير فتتبعت مصدر الصوت فوجدت أختي الصغيرة وهي تنظر بعيون كلها براءة وكأنها تسأل هل سنعود إلى قريتنا ذات يوم؟

وفي موكب زاه يطوف به الأحباب روعة وبهاء ونقاء انطلقت بسيارتي إلى مرافئ الشوق والنشأة عقب سنين طويلة.

أبصرت الخضرة وسنابل القمح النائمة من خيرات المطر بدأت تتفتح، والنجوم تتوارى، والكاذي يتراقص والنور يسطع ليطوي الليل القاتم ببرده وسطوته.

الكائنات الساكنة بدأ دبيب حركتها، وبينما الكون نائم على شق الكسل وجدت الجعدية تنثر سباتها الشتوي منتشية بموسم الخضير.

عدت وقد ازدانت الجعدية جلالا وجمالا وإشراقا وضياء وخضرة وماء ورقة هواءٍ ونسيمٍ تبدو أمام عيني الناعسة كزهرة متفتحة كعطر منسكب.

أسمع صياح الديكة، وتغاريد العصافير، ومأمأة الخرفان، ومواء القطط ونباح الكلاب، وخوار الأبقار، ورغاء الإبل، وطنين النحل.

أشم روائح الفل، وأتنفس الكاذي وعبير الرياحين، وأتذوق خبز التنور، وأتلذذ بالعسل الصافي، والسمن الطبيعي، وأشرب الحليب الطازج.

يعجبني صوت الإمام ويشدني صوت المؤذن في المسجد القديم، ويدهشني منظر تلك المنازل المحاطة بزرائب المواشي وفراخ الدجاج، وتطربني دقات المطحنة الحجرية.

أشاهد من يقطن هذه القرية متمسكين بالعادات الحميدة التي توارثوها عن آبائهم وأجدادهم كحلقة وصل بينهم ففيها إغاثة الملهوف، واحترام الكبير ورعاية حقوق الجار.

ما زال أهلها في بساطة وقناعة تجمعهم الوداعة، والبهائم والمواشي والمحاصيل في كل مكان.

رمى الحنين منديله فوقفت على الأطلال ونفضت حقائب الغياب البعيدة وأزحت غبار السنين بحقائب العودة، وألقيت تحية الشعراء، فللجعدية شوقا يتجدد وعشق أهلها لا يتبدد يتمدد ويتمدد.

وقفت ذاكرتي الصغيرة أمام مدرستي الابتدائية ثم المتوسطة فمن علمني فيها حرفا صرت له عبدا، بحت أصواتهم أحرقوا شبابهم كالعود أناروا دروب العلم وأصبحنا نقتبس من حروفهم أجمل الحكايات ونروي القصص.

أستاذتي هناك لكم مني تحية إجلال يا فرسان النهضة يا صناع الأجيال من ينسى صنيعكم ليس وفيا.

كم وكم صنعتم من متعثر طبيبا ومهندسا ومعلما وجنديا و و و.

ما هي إلا وقفة قصيرة لن توفيكم حقكم أمام وقفاتكم الضخمة ودوركم الريادي في المجتمع فقد حملتم المسؤولية، وكنتم أهلا لها.

الآن عدت أشعر بعرش السعادة وقد رسمت خطوط المستقبل ولكن انفض الجميع من حولي كما هربت أنا من ضجيج المدن وقيود الحضارة باحثا عن الشمس والليل والهواء العليل تاركا خلفي الصخب والهواء الملوث.

تلك الأكواخ المتشابهة لم تعد، فمددت بصري في كل أرجاء القرية ومن مسافة إلى مسافة تظهر عمائر حديثة.

إن أولئك الفلاحين قد رحلوا وتركوا أصوات الحنين حية، فقد تغيرت تلك الوجوه وللجعدية عشرات الوجوه.

حقول القمح بدأت تندثر، وأكواخ الفلاحين بدت كديار النازحين، غاب صوت الديك ومات إمامنا، وأصبحنا جيلا إلكترونيا، اختلفت الإنسانية، فمن كنا نراه في الدكان والمسجد والحارة أصبحنا نمر بجانبه، ولا نلقي له التحية كما كنا في السابق.

كبرت المنازل تطورت القرية وكثرت وسائل التواصل فندر التواصل.

كل شيء تغير.

حاولت أن أغلق ذاكرتي لأعود إلى زنزانتي وواقعي لكن عاصفة الشوق اجتاحت وغاصت تقلب الأيام الماضية وعتباتها فطلع الفجر وودعت الظلام.

انعقد لساني لحظات وشعرت كأني مولود للوهلة الأولى ثم انفتحت عيني على القرية كلها وأنا داخل من قرية الهجنبة، وبدأت أشاهد المدرسة ثم سرت بسيارتي مارا بوسط القرية ألتفت يمنة ويسرة لعلي أشاهد أحد الأصدقاء ومضت عيني تتفتح بالأمل حيث طويت المسافات ثم عدت إلى قريتي لتنتهي ليالي المدينة.

وبدأت أصافح عالمي الخارجي بما كنت أخفيه داخلي ولغة تحاورني وتحدثني بما كنت أكتمه يا لهذا الشوق الذي توشح صدري!

أطلقت الآهات لا أعرف من سيكسب، الماضي أم الحاضر؟ حدقت في السماء ثم بدأت ليلة أخرى.

الذكريات تتدفق في خيالي كما هو السيل الذي يتدفق من أعالي الجبال والديار والأحبة في قمم ذاكرتي ما زالوا أحياء.

وبدأت تنوح في قلبي الذكريات والحنين يعنفني، فقد رحل بعض أحبتي، وليس ثمة جنة أخرى أكثر عطاء من رحيل من نحب.

سيظل طيفهم يراودنا ويعانقنا.

سيرة المؤلف ..

النشأة و التعليم

- خالد بن جابر بن خلوفه محزري
- من مواليد عام 1407 هـ بقرية الجعدية في محافظة أحد المسارحة التابعة لمدينة جازان.
- تلقى تعليمه الابتدائي والمتوسط في قرية الجعدية من عام 1414 إلى عام 1423، ثم أكمل تعليمه الثانوي في مدينة الأحساء في ثانوية حراء، وتخرج منها عام 1426.
- وفي عام 1430 حصل على بكالوريوس اللغة العربية من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود.

العمل

- عمل معلما في مدينة الأحساء بعد تخرجه من عام 1430 إلى عام 1435 ثم انتقل للعمل معلما في مدينة جازان، وتحديدا في محافظة صامطه لعامين.

- العودة مجددا لمسقط رأسه للعمل معلما في محافظة أحد المسارحة في مجمع الجعدية التعليمي، والتي درس بها الابتدائية والمتوسطة.

- عمل صحافيا متعاونا في بعض الصحف كصحيفة اليوم والنادي الورقيتين وصحيفة قول أون لاين الإلكترونية سابقا، وما زال يعمل متعاونا في صحيفة رؤى الخبر الإلكترونية.

الدورات التدريبية

- حصل على العديد من الدورات التربوية.
- حصل على العديد من الدورات الإعلامية.
- حصل على العديد من الدورات التدريبية في مجال الحاسب الآلي.
- حصل على العديد من الدورات في مجال تطوير الذات.

الجوائز وشهادات الشكر والتقدير

- حصل على جائزة أفضل كاتب رياضي في جائزة أحمد الراشد للإبداع الإعلامي الرياضي في الأحساء 2012.
- كرم في العديد من المناسبات الرياضية في الأحساء.
- كرم في محافظة أحد المسارحة بمدينة جازان وفي عدد من الدوائر الحكومية بالمنطقة.

الإنتاج العلمي

1- خطوط الطين، نصوص، دار زحمة كتاب، القاهرة، ط1 (2018).

للتواصل مع الكاتب ..

khaled_mahzari

khaled mahzari

khaled_mahzari

khaled_mahzari

khaled_mahzari@hotmail.com

الفهرس ..

الإهداء .. ______ 1
مقدمة .. ______ 2
ليلاف .. ______ 4
صندوق سارة .. ______ 15
يوم بائعة .. ______ 31
حسناء .. ______ 40
أثير الريف .. ______ 50
عصفور الظل .. ______ 58
فأس ومزمار .. ______ 68
رسائل لم تصل .. ______ 80
من فات عاد .. ______ 105
شدَدْت القافلة إلى الجعدية .. ______ 112
سيرة المؤلف .. ______ 120
للتواصل مع الكاتب .. ______ 123
الفهرس .. ______ 124